



Equipes Notre-Dame

فرق السيّدة – لبنان

الحياة في المسيح

نقله إلى العربيّة الأب صبحي حموي

بدلاً عن المقدّمة

إنّ سنوات التعمّق تمثّل في حياة الزّوجين المسيحيّين تلك المرحلة التي يحاولون فيها أن يتبيّنوا الوضع وأن يبتعدوا ربّما عن شيء من الروتينيّة وأن يذهبوا إلى أبعد، أي إلى أعمق. تلك السنوات تلبّي رغبة - شعرنا بها شعوراً خاصّاً عند منعطف من منعطفات حياتنا- في نجاح هذه الحياة الوحيدة التي نلناها وفي عدم تبديدها في أشياء تافهة.

إنّ مثل تلك الرغبة تشبه ما سمّاه اختبار الكنيسة طلب الكمال المسيحيّ. فالمطلوب من سنوات التعمّق هذه أن تكون قبل كل شيء وقتاً مكثّفاً ومرحلة جديدة من مراحل ذلك الطلب.

لقد قَبَلنا، كمسيحيّين، أن يكون المسيح معلّم حكمةٍ نبحت لديه عن طريق الحياة الصحيحة وننّخذ مرشداً، فالخروج من طرقنا المسدودة واتجاهاتنا الكاذبة ودروبنا الميؤوس منها. ليس لنا من طريق سوى إنجيله.

المسيح يقودنا إلى ملاقاته الله. هذا هو الخلاص، هذا هو الكمال المسيحيّ: أن نرى الله. "إنّ مجد الله هو الإنسان الحيّ، وحياة الإنسان هي أن نرى الله." (القديس إيريناوس)

إنّ التصويب إلى حدود الكمال والاجتهاد في نجاح الحياة لا يعنيان إقحام النفس في مشروع أخلاقيّ يُراد به بناءً شخصيّة معيّنة، وإن كانت روحية، باللجوء إلى بذل الجهود واتّخاذ القرارات وتبني الأفكار وممارسة تقنيّات السيطرة على النفس. من الواضح أنّ تلك العناصر لها محلّها، لكنّ الكمال المسيحيّ في صميمه هو عملٌ إلهيّ، إذ هو يقوم على لقاء مع الله. فالإنسان يجد تحقيق نفسه وكمالها في لقاء الله منذ هذه الحياة، في انتظار رؤيته وجهاً لوجه.

إنّ موضوع الدرس المعروف لهذه السنة يهدف إلى مساعدة الزّوجين على إتمام هذا الاكتشاف، أي لقاء الله.

ويفترض أيضاً أن يساعدهما في رؤية الأمور على حقيقتها. أي بصفتها مسيحيّين، ألسنا نتيه كثيراً في هذه الأيام في هذا العالم الذي لم نعد نفهمه وفي هذه الكنيسة التي يُقال إنّها " في أزمة " ؟ نحن لا نتقننا الرغبة في عمل شيء من الأشياء، ولكننا لا نرى في أي اتجاه نسير، لأننا لم نعد نعرف نداءات الرّب، وبالتالي ذلك الرجاء الكائن فينا.

ستجدون إذا في هذا الموضوع، لا تحريصات أخلاقيّة، بل تفكيراً عقائدياً ينطلق من الأسئلة الواقعيّة التي نطرحها اليوم : ما هو الإيمان بالمسيح القائم من الموت ؟ ما هي كلمة الله ؟

لا يخفى علينا الكتاب المقدّس والتقليد المسيحيّ وتعليم الكنيسة. ولكن، هل ندرك كما يجب معناها في حياتنا ؟ وهل تؤثر كلمة الله في اهتماماتنا الحقيقيّة الحاليّة ؟ وهل يوضّح تعليم الكنيسة حقيقة حياتنا ؟ نحن نعيش في العالم، ففيه إداً، لا في مكان آخر، نستطيع ويجب أن نسمع نداءات الحبّ.

إنّ ذلك التفكير لن يكون طبعاً خصيباً إلا إذا استند إلى الصلاة، إلى صلاة واثقة ومواظبة. فالإنسان الذي ليس عنده سوى قواه الإنسانيّة لا يستطيع أن يدرك ما يأتي من روح الله (١ قور ١٤/٢). على الزّوجين إذاً أن يتركوا مكاناً واسعاً للصلاة في حياتهما اليوميّة، طالبين من الرّب أن يهبهما نورَه لينير مساعدهما وقوّته ليساعدهما على البلوغ إلى حسن الختام.

الفصل الأول

إيماننا

إنَّ إيماننا هو قلبُ حياتنا وروحُ روحنا.

لقد اقتنعنا بذلك حتى إننا سعينا جاهدين، طوال السنين الماضية وبمساعدة فرقتنا، إلى أن نوضحه وتعمق فيه وننعشه ونطهره ونشهد له على وجه أفضل.

لذلك، طالعنا الإنجيل ودرسناه، وحاولنا أن نُشرب به أفكارنا وأعمالنا. وتعمقنا في تعليم الكنيسة وكرسنا للصلاة مكانًا واسعًا في كلِّ أيامنا. فغيّر ذلك أعماق حياتنا، وأصبح المسيح حاضرًا فيها حضورًا قويًا. ولم نعد نرى الآخرين كما كنا نراهم، وهكذا لم نعد نستطيع بعد اليوم أن نفكر أو نعمل كما كنا نفعل في الماضي...

ومع ذلك، فما أكثر مناطق الظلِّ الباقية فينا حتى اليوم! أفلا نشعر في أكثر الأحيان بالحيرة أو الحرج حين يجب علينا أن نقول بماذا نؤمن؟ ألسنا نرتبك أحيانًا بما نطالع؟ أولسنا نضيق بالأسئلة التي يطرحها علينا أولادنا أو معارفنا؟ أولًا تشكّل التغييرات السريعة في الكنيسة والنزاعات بين المسيحيين ورفض أولادنا الكبار كلِّ ممارسة دينية اختبارًا مُحرّجًا لإيماننا؟

نحن نصلي، ولكن، ألا تبقى صلاتنا أحيانًا كثيرة مجرد كلمات نتخلّى عنها بسهولة، عن سأم أو فتور همّة؟ إننا نؤمن، ولكن، هل أفعالنا متماسكة مع إيماننا؟

في الواقع، نحن ندرك أنّ إيماننا يبقى ضعيفًا إلى أقصى حدّ. ولكن، أيّ جهد نبذل لنشدده ولنزداد دخولاً في سرّه؟ هل نستنفر لذلك جميع قوانا البشرية، ولا سيما الفكرية منها؟

وهل نتوسّل إلى الرّب لكي يزيدنا من نعمة الإيمان؟ أولسنا نستسهل الاكتفاء بالقليل الذي اكتسبناه؟ هذه أسئلة يجب أن نطرحها على أنفسنا طرحًا جديًا.

وثائق:

وضعنا كمؤمنين في هذه الأيام

ما هو معنى حياتي؟ على هذا السؤال، ليس للعلم من جواب. فالناس في أيامنا يبذلون نشاطًا لا يُصدّق، والسؤال اليوم، أكثر من أي يوم مضى: ما هو المعنى الأخير لكل ذلك النشاط؟ جاء في وثيقة "فرح ورجاء": "أمام ذلك المشروع الذي لا حدّ له والذي اجتاح الجنس البشري، ترتفع الأسئلة بين الناس: ما هو هدف ذلك النشاط المُجهّد ومعناه" (رقم ٣٣).

إنّه، في نظر بعض الناس، الرفاهية ووفرة الخبرات المادية. لكن، أليس هناك أناسٌ كثيرون لا ينقصهم شيء ولكنهم ليسوا راضين أبدًا؟ هناك أشخاص يجدون معنى حياتهم في مذهب أو في قضية يعملون لها أو يدافعون عنها. ولكن هل تكفي فكرة لتحقيق رغبة قلبنا؟ وفي نظر بعض الناس الآخرين، الحياة غير معقولة ولا معنى لها. ولكنّ الإنسان لا يحتاج فقط إلى وسائل عيش، بل يحتاج أيضًا إلى أسباب عيش. يحتاج إلى شيء يبنى نهائيًا نشاطه وحياته.

إنّ بحث الإنسان الدائم وجهوده ذات القيمة تدلّ على أنّه لا يجد في نفسه تحقيق أمنيته. فالسؤال الجذريّ لمعنى حياتنا يدفعنا إلى أن نطرح أنفسنا على بساط البحث: أن نبحت عن أساس وسندٍ لأنفسنا، وهذا الأساس لا نستطيع أن نبنيه بأيدينا، وإلاّ نكون وجهًا من وجوه الأدب الألمانيّ الذي كان يبحث عن خروجه من الرمال المتحرّكة كمن يسحب نفسه من شعر رأسه.

يمكننا هنا، منذ الآن، أن نلمح مكان الإيمان : لأننا به نجد أساسًا وسندًا ... إنّ معنى " آمَنَ " الأصلي، في الكتاب المقدّس (العبري)، هو : استند. نتذكّر هنا كلام الرّب في أشعيا ٩/٧ : " إن لم تؤمنوا (حرفياً : إن لم تستندوا)، لن تحفظوا أنفسكم، لن تبقوا". ونتذكّر هنا أيضًا عبارة القديس أوغسطينس الشهيرة : " لك جعلتنا، يا ربّ، ولن نجد قلبنا الراحة حتى يستريح فيك ".

ولكن، لكي نوضح ما هو وضع الإيمان الذي يجعلنا نجد سندًا في الله، يجب أن نتكلّم أيضًا على اختبار اللقاء بين أشخاص. على سبيل المثال، حين يولد الحبّ بين رجل وامرأة، فإنّ النظرة التي يلقيها الواحد على الآخر ليست النظرة التي تحلّل الأشياء، لأنّ الوضع هنا هو غير الوضع العلميّ: ذلك بأنّ الرجل أو المرأة يجد أحدهما في الآخر أساسًا وسببًا للعيش، فتتخذ حياتهما معنى. فما لا يستطيع الواحد منهما أن يصوغه بيديه، يجده في ذلك اللقاء، لأنّ حبّ الآخر هو كسند له. فهذا الرجل وهذه المرأة يجدان اكتمالهما الواحد في الآخر. إنّ الآخر هو الذي يجعلهما يعيشان، لأنّ نظرة الآخر تخلقنا وتجعلنا نكون حقًا. " من أنا بدونك، أنت الذي أتيت للقائي؟ من أنا بدونك إلاّ قلبًا من خشب؟ من أنا بدونك إلاّ تمتمة كلمات؟..."

يمكننا القول إنّ حياتنا تتخذ معنىً بقدر ما نخرج من أنفسنا لنعتمد على حبّ إنسانٍ آخر، أي لنستند إلى إنسانٍ آخر. فهناك ما نستطيع تسميته "إيمانًا" بشريًا، وهو يمكن أن يكون جوهريةً لحياة الإنسان، أي أن لا ينقلب إلى حالة علمية. في الواقع، إنّ مستوى اختبارنا هو أساسيّ أكثر من مستوى نشاطنا العلميّ أو التقنيّ، لأنه هو الذي يضيف معنى على الباقي كله.

ومع ذلك، فإن صحّ أنّ اللقاء الأصليّ في الحبّ يلبي رغبات قلبنا ويضيف معنىً على حياتنا، فعلينا أن نلاحظ أنّ هذا اللقاء له حدود، كالموت على الأقلّ. لأنّ الآخر لا يستطيع أن يكون الأساس الأخير، لأنّه هو أيضًا سريع العطب، فلا يمكنه أن يكون المعنى الأخير لكلّ شيء، إذ إنّ حبّ الآخر لا يستطيع أن يمنعنا من أن نموت. وعليه، يجب أن يكون حبّ الرّوجين هو أيضًا قائمًا على أساس.

ورد في الكتاب المقدّس أنّ وراء لقاءاتنا البشريّة هناك لقاءً أساسيًا أكثر من غيره. هناك أحدٌ يظهر في هذا العالم وفي تاريخ الناس. وهو يُسمّينا كلمته الشخصية عبر إشارات أو علامات. إنّ الإيمان الحقيقيّ هو أن نستند إلى هذا الأحد وأن نعرفه في العديد من إشارات حضوره في هذا العالم. لأنّ العالم والتاريخ البشريّ هما ظهور حبه. وعندئذٍ نجد اكتمالنا الحقيقيّ، ونجد في لقائنا إياه معنى اكتمالنا هذا وخلصه. إنّ نشاطنا البشريّ في تغيير العالم لا يقف هدفه عند تشجيع لقاء البشر في الحبّ، بل عليه أن يجعل العالم أكثر شفافيةً لحبّ الله، وعليه أن يساعد البشر على معرفة الله في تجلّي الحبّ البشريّ.

إنّ أعلى قمة للتجلّي هي يسوع المسيح. ففيه يتجلّى الله في وجه إنسانيّ، حيث يستطيع الإنسان أن يكتشف معنى حياته، وأن يسمع حقًا الكلمة التي تغذي قلبه. أمّا سائر الإشارات، في الطبيعة وفي التاريخ، فهي مجرد استعداد لذلك التجلّي الأخير حيث يكون قريبًا من إيماننا وحبنا. الآن يمكننا أن نقول: "نؤمن بيسوع المسيح، كلمة الله الحيّ، معنى حياتنا، ومخلصنا".

التقدم في الإيمان

يتصور بعض البسطاء أننا لا نستطيع أن نعمل شيئاً: عندي إيمان أو ليس عندي. الحق يُقال إن الإيمان في الأساس مجاني وهو عطية من الله. لكن النمو في الإيمان يتطلب من الإنسان تعاوناً لا يتوقف. ليس الإيمان امتلاكاً مُريحاً، بل هو مسيرة طويلة تصطدم بالعديد من الصعوبات، وأحياناً نضطرّ للرجوع إلى الوراء: ما أكثر الأزواج الذين، على سبيل المثال، كانوا في سن الـ ٢٥ أو الـ ٣٠، أشدّ ألفة مع الله منهم في الـ ٤٠ أو الـ ٥٠؟ ...

لا يخفى على أحد، طبعاً، أنّ الإنسان لا ينتقل بدون صدمة من إيمان طفوليّ إلى إيمان بالغ، ولا من إيمان شخص سعيد إلى إيمان شخص بلاه الزمان. إنّ التطهيرات المتتالية هي النصيب المشترك. يمكنكم أن تتكلموا عن الأزمات. قد يكون من الأصحّ أن تقولوا: "عتبات" أو "صحوات"، بما أن الكلام يدور، في هذا العبور الضيق، على الوصول إلى ألفة أعمق مع الله. انظروا إلى إبراهيم، لا شك أنّ إيمانه، حين طلب إليه أن يذبح ابنه إسحق، كان أجمل وأطهر ممّا كان عليه حين طلب إليه فقط أن يغادر بلده.

يرينا القديس يوحنا، حين روى لنا شفاء ابن عامل الملك. كيف أنّ كلمة الله، حين لقيت أخيراً إنساناً سهل الانقياد، استطاعت أن تعمل فيه بالعمق وأن تقوده فوراً من إيمان أرضي ونفعي إلى نظرة إيمان طاهرة وتبشيرية.

لا شك أنّكم تعرفون المشهد: جاء إلى يسوع أبّ قلق: كان ابنه ينازع، ولكن الربّ، على ما يبدو، عامله بخشونة ظاهرة، وكأنّه يرفض إجراء المعجزة. لكنّ الأب رفض أن يستسلم، وقال له: "يا ربّ، أسرغ إلى النزول، قبل أن يموت ابني". لكنّ يسوع يشفي من بعيد: لا لكي يُدلّ ذلك الرجل، بل ليُظهر نوعية إيمانه المتقدمة. وقيل الأب أن ينطلق من دون أن يرى شيئاً، فسار في إيمان طاهر.

في الحقيقة، نحن أيضاً كثيراً ما نكون تعساء، لأنّ إيماننا هزيل: فما من شيء صالح أو مفرح في وضع الثقة بأحد. وهكذا يضيق نفسنا في الاستقلال، ونختنق في عدم الثقة.

أومن بيسوع المسيح

" إن كان يسوع ابن الله، وإن كان قد أتى إلى عالمنا وقضى حقاً على الموت وانتزع أصل كل شرّ، وإن كان قد جاء بالبشرى الوحيدة التي تنير قلب الإنسان، وإن كان قد أعطى الإنسان إمكانية الدخول الدائم عند الأب، وإن كان قد أشاع بانتصاره على الموت روح القداسة في كل قلب يستقبله، فإنّ حدث حياتنا هو أننا التقينا به !

إنّ ما يميّزنا نحن المسيحيين عن سائر الناس، وما يغيّر صورتنا لدرجة أنّ كلّ ما يحدث لنا يصبح بفضل هذا الحدث مُضاءً ومحوّلاً، وإنّ ما يُضفي بعد اليوم على كلّ من أفعالنا قيمةً تتجاوزنا ومعنىً تبشيريّاً، أي ما يجعل من حياتنا بشرى، هو أننا التقينا بيسوع المسيح.

لا يفترض ذلك سرعةً في التصديق وإيماناً مشروطاً: أنا أومن ... إن استُجبت بالطريقة التي أرسماها للربّ، أو إن شعرتُ بذلك، أو إن لم أتألم. وأنا أُعبّر عن هذا الإيمان حين أريد.

لا، فنحن نتكلّم على الإيمان بيسوع المسيح أي عن ذلك اللقاء الواعي، ذلك التخلّي التام، ذلك الاكتشاف الذي لا يُصدّق، كالكشف بطرس حين صرخ: "أنت المسيح!". فبالنسبة إليه، وبالنسبة إلى الرسل، كان ذلك تحقيقاً لجميع التوقعات والآمال والوعود: كان ذلك نتيجة تاريخ العهد المقدّس.

وهو أيضًا كلام بطرس، في أثناء خطبة خبز الحياة، حين ابتعد الجمع، وحين التفت يسوع إلى رسله وطرح عليهم السؤال: "وأنتم، ماذا ستعملون؟" فأجاب بطرس: "يا رب، إلى من نذهب، وعندك كلام الحياة الأبدية؟ نحن نؤمن ونعلم بأنك قدوس الله!".

إنّ المسيح هو حياتنا كلها. فهل نعي ذلك؟ وإلى من نذهب نحن أيضًا؟ هل وجدنا في إنجيله كلام الحياة الأبدية؟ ذلك الكلام الحاسم، ذلك الكلام الذي مكّننا من أن نرى في يسوع قدوس الله! حين التقينا يسوع المسيح، هل آمنّا به إيمانًا حاليًا دائمًا التجدد؟ هل عشنا معه في صلاة متواصلة ومختبرة ومحبوبة؟ وهل التزمنا بأن نتبعه وأن نسير على خطاه لنصبح "تلاميذه". إنّ عبارة "نصبح تلاميذه" هي عبارة جميلة مأخوذة من الإيمان المسيحيّ الأوّلي. هل لدينا فضائل من الدين المسيحيّ الأوّلي المميّز؟ إنّها فضائل تؤثر في حياة التلاميذ: التواضع والسلام والفرح والرجاء والمحبة. وبها يُعرف تلميذ يسوع الحقيقيّ.

هذا لا يعني أنّ المسيحيّ يجهل أو يرفض مآسي العالم التي تنقضّ علينا كلّ يوم: الظلم والخطيئة والعنف والألم، ولا سيّما الموت. نحن لا نرفض ذلك، بل نواجهه مع المسيح. نحن لا نريد أن نُنكره، بل أن نتغلّب عليه.

لقد أظهر يسوع في إنجيله أنّه عدوّ الشرّ والألم والموت. فمعجزاته تدلّ على ذلك، وأقواله تشهد له. وقد واجه يسوع الشرّ بوجهٍ مكشوف، لا ليضع حدًا له، بل ليتغلّب عليه في أصله. فكان ذلك صليبه.

يجب علينا أن نواصل البحث كلّ يوم عن يسوع المسيح ربّنا لكي نعرفه ونحبّه!

مَثَلُ الْحَبِّ الزَّوْجِيِّ

"أيّها المتزوّجون، وقتكم أقصر من أن تستطيعوا درسَ إيمانكم والتعمّق فيه. بعضكم يتألّم من ذلك، وآخرون يرضخون له بسهولة متذرّعين بحجّة تُعفيهم من بحث مُتعب. إنكم تنسون أنّه، بالإضافة إلى الكتب العادية، لديكم الكتاب المقدّس الذي يحتوي على جميع الحقائق العائليّة: الحبّ الزوجي والأبوة والأمومة والطفولة والبيت..."

إنّ الزواج هو ما يستخدمه الكُتّاب الملهمون منذ ٢٦ قرناً لكي يشرحوا للناس إلى أيّ ألفة مع الله هم مدعوّون: فكما أنّ الزوجة هي مصدرُ فرح لزوجها. كذلك أنت مصدرُ فرح لله. إنّ الأب، ربّ العائلة، هو أفضل مرجع يجده المسيح لكي يشرح لنا ما هو الله: "إن كنتم، أنتم الأشرار، تعرفون كيف تعطون لأولادكم أشياء حسنة، فكم بالحري يعطي الأب السماوي الروح القدس للذين يسألونه!"

ولكي ينقل يسوع المسيح إلينا سرّ حياةٍ رويّةٍ عزيزة على قلب الله، يدعونا إلى أن نأخذ بعين الاعتبار الطفولة: "إن لم تصيروا كالأطفال، لن تدخلوا ملكوت السموات".

فإن لم تعرفوا أن تتهجّوا ذلك الكتاب المقدّس الذي هو حياتكم العائليّة، "بما فيه من قدرة تؤثر فينا أكثر ممّا نطلبه ونفكر فيه"، فكيف تستطيعون الاطّلاع على حياة إلهكم الحميمة، وعلى كنوز حبه التي لا تنفد؟

"اليوم، إذا سمعتم صوت الله، فلا تُقسّوا قلوبكم". أنتم المتزوّجون لا تستطيعون، إن أصغيتم، أن لا تسمعوا صوت الله، لأنّه موجود في عائلتكم، وهو يكلمكم بألف طريقة وطريقة. ولكن هل تصغون إليه حقاً؟

دروب تفكير :

- في مسيرتنا الإيمانية كأشخاص:

- كيف التقينا يسوع المسيح ؟
- من هم الأشخاص وما هي الأحداث التي كان لها تأثير خاص في تطوّر إيماننا ؟
- إلى أين وصلنا اليوم ؟ ماذا يمثل إيماننا لنا ؟ على أي شيء هو مبني ؟ هل صادفنا عقبات ؟ هل نهتمّ بالتعمّق فيه وبالشهادة له ؟ وكيف يتجسّد ذلك ؟

- في مسيرتنا الإيمانية كزوجين:

- هل ساعدتنا حياتنا الزوجية والعائلية على التعمّق في إيماننا وعلى عيشه ؟ وهل كانت سبباً لبعض العقبات ؟
- ماذا اكتشفنا معاً، وبخاصّة منذ انضمامنا إلى فرق السيّدة ؟ هل ساعدنا اختبارنا كزوجين على تفهّم أفضل للإيمان بالله-المحبّة ؟
- هل يشعر كلّ منا بأنّه مسؤول عن إيمان الآخر ؟ هل نتقاسم إيماننا ؟ هل يساعد واحدنا الآخر على التعمّق في الإيمان وعيشه والشهادة له ؟

نقاط الجهد الملموسة

نقترح عليكم أن تتوقّفوا عند نقطتين ملموستين من التي تعرضها الحركة علينا لتساعدنا على التعمّق في إيماننا وعلى عيشه: الصلاة القلبية وموضوع الدرس.

- في الصلاة القلبية :

- أيّ مكان تشغله حالياً هذه الصلاة في حياتي الإيمانية ؟
- كيف تطوّرت مسيرتي منذ أن بدأت أقوم بهذه الصلاة ؟
- كيف أعيش اليوم هذه الصلاة ؟ هل هناك عقبات ؟
- أي مساعدة أتمنّى أن أحصل عليها من قبل زوجي ؟ من قبل الفرقة ؟

- في موضوع الدرس:

ورد في وثيقة "ما هي فرقة السيّدة": " إنّ تبادل وجهات النظر في موضوع الدرس هو، بوجه خاص، وقت التعمّق في الإيمان".

- هل إنّ موضوع الدرس هو ذلك بالفعل بالنسبة إلى الزوّجين والفرقة ؟
- كيف نُعدّ موضوع الدرس ؟ فردياً ؟ الزوجين معاً ؟
- كيف نتبادل وجهات النظر حوله في الفرقة ؟
- هل هناك حاجة، في بعض النقاط، إلى تجديد طريقة القيام بذلك ؟

الفصل الثاني

حُبنا الزوجي

" إنَّ البُشرى التي أتى بها المسيح المخلص هي أيضاً بشرى للحبِّ البشريِّ. فهذا الحبُّ هو أيضاً ممتاز في أصوله ... لكنَّ الخطيئة أفسدته، والمسيح افتداه، حتى إته أصبح بالنعمة وسيلة قداسة". هكذا تكلم بولس السادس حين خاطب الـ٤٠٠٠ زوج من فرقة السيِّدة المجتمعين في رومة في أيار ١٩٧٠.

أجل، نحن نؤمن بأنَّ الحبَّ الزوجيِّ، في ملئه البشريِّ والروحيِّ، وفي وحدته، وفي عدم قابليته للفسخ، وفي خصوبته، يلبي تدبيراً إلهياً سبق أن ظهر في العهد القديم، وانكشف بكماله في يسوع المسيح. أوليست دعوة الحبِّ البشريِّ، السامية والطموحة إلى أكبر درجة، تطابق أعماق أمانى القلب البشريِّ، سواء أكان ذلك في أمل الخطييين المبتهج أو في باطن أفراح الشيوخوخة؟ أولا نكتشفها أيضاً خلف مخاوف العديد من الشباب أو خلف الأقوال المخيبة التي يلفظها الذين فقدوا إيمانهم؟

لكننا نعرف أيضاً، عبر اختبارنا الخاص، العقبات والصعوبات التي يجب على الحبِّ أن يجابهها وأن يسيطر عليها لكي يثبت ويلبي دعوته الإلهية. ونراهن أيضاً، بدرجة مختلفة، على مساعدة إخوتنا: أفلسنا لذلك قد جننا إلى فرقة السيِّدة؟ "إن المساعدة، داخل فرقة السيِّدة، تتخذ وجهًا خاصًا جدًا: فالأزواج يساعد بعضهم بعضًا في بناء أنفسهم في المسيح - إذ إنَّ بناء الكيان الزوجيِّ هو عمل دائم - وفي وضع حبِّهم في خدمة الملكوت." (راجع وثيق "ما هي فرقة السيِّدة؟").

أين أصبحنا اليوم من بناء الكيان الزوجيِّ؟ مع مرور الزمن، نضح حُبنا وتغيَّر عبر الأفراح والمحن، تَبَنَّتْ شخصيتنا، وتعمقت وحدتنا، واغتنت تبادلاتنا، وأخصب تعاوننا في خدمة الآخرين، وطهر حُبنا.

ولكن، ربَّما ظهرت بعض نقاط الاختلاف، وقد فضلنا أن نتجاهلها على أن نتجابه بشأنها. وربَّما كانت الاختلافات أعمق أحيانًا بالنسبة إلى بعضنا. ومع مرور السنين، اتسعت مناطق الصمت، وأصبح الوفاق والانسجام أصعب. فتوقَّف بناء الكيان الزوجيِّ وتطوَّره وسيره نحو الربِّ.

أيًا كان وضعنا حاليًا، من المفيد ولا شك أن نختبر هذا الوضع، وأن نقيس الطريق الذي اجتزناه منذ زواجنا، وأن نعي جميع النعم التي غمرنا الربُّ بها، وأن نحاول تمييز مناطق الظلِّ الباقية، كل ذلك من أجل أن نحدِّد معالم الطريق الذي يجب أن نسير فيه في الأشهر الآتية لكي نلبي بوجه أفضل نداء الربِّ.

حبُّ الزوجين تحت تجربة الحياة اليومية

زوال الحبِّ البشريِّ

" هل صحيح أنَّ الحبُّ يُبتدل فيتحوَّل كالألماس إلى ترابه الخاص؟" لننطلق من هذا الموضوع المعروف في الأدب: ابتذال الحبِّ على مرَّ الأيام تحت تجربة الحياة اليومية. يحلم الزوجان الشابان حبًّا ليس فيه أيُّ نقطة ضعف، حبًّا أبديًّا كامل. " لا شك أنَّ ذوي التفكير السليم والخبرة لا يملكون

مثل هذه الحماسة. ذلك بأنّ العقبات تبرز تدريجيًا وتزداد أهمية. يجب أن يعترف بعض الأزواج بأنّ تراجع الحبّ يؤدي إمّا إلى التمرّق وإمّا إلى التحجّر والفراغ تحت ظواهر مساكنة مسلّم بها.

ولكن، هل نحن حقًا أمام تراجع؟ ألسنا بالأحرى أمام حبّ لم يتمّ؟ ألا يأتي الفشل من الوهم بأنّ الحبّ يُعطى نهائيًا؟ وبطريقة أعمق، ألم يعيش الزوجان وفقًا لصورة خاطئة عن الحبّ، صورة مطابقة لمفهوم الهوى المحسوس؟

ما هي صورة الحبّ الراسخة في ذهننا؟ هل ما زلنا عند الصورة المحسوسة، صورة الهوى أو الغرام؟ سيكون هذا سؤالنا الأول ...

إنّ ابتذال الحبّ كثيرًا ما لا يكون إلاّ ابتذال شكل خاصّ من الحبّ الذي لم يُنم جميع المكونات التي كان يحملها.

في بدايات الزواج، كان الحبّ-الهوى شاملاً ... وكأنّ العشاق هم وحدهم في العالم. وعلى مرّ السنين، بدأت حرارة العشق تتلاشى وتتلاشى معها السعادة العارمة والفرح التلقائي والابتسام الدائم والرغبة في الحضور والجوع الكبير إلى الامتلاك. وحلّت محلّها الرتابة والعادات الصغيرة المملّة على جميع المستويات، كما ازدادت معرفتنا للأخر دقّة بما فيها نقائصه وحدوده. وبرزت لدينا بعض التساؤلات: "هل ما زلت أحبه؟ ألم يكن ربط حياتي بحياته غلطة كبيرة؟"

يعيش الحبّ بالتجدّد، ويستطيع الزمن أن يُميّته تدريجيًا. إن كانت عند الزوجين شجاعة السير إلى الأمام، تُصبح المحنّ لهما فرصةً للتجاوز والتقدّم إذ تُمكن الحبّ الحقيقيّ من الكشف عن غناه.

ولكن يجب الذهاب إلى أبعد من ذلك. إنّ موضوع ضعف الحبّ البشريّ يُخفي ولا شكّ اختبارًا أعمق من اختبار حدود الهوى المحسوس. إذ يبقى الحبّ البشريّ مهّدًا، لا بالمحنّ الخارجيّة فحسب، بل بالأنانيّة المتجدّدة دائميًا. ولا شكّ في أنّ الزوجين يدركان صعوبة صيانة هذا الكنز السريع العطب. فالحلم بالحبّ الكبير الدائم قائم أبدًا، أمّا إمكانيّات الحبّ فهي محدودة.

وإذا صحّ أنّ اختبار محدوديّة الزوجين قد يوصلهما إلى شيء من الشكّ، فإنّه يستطيع أيضًا أن يوصلهما إلى رجاء جديد. فعلى الرغم من أوهانها وحدودهما، فإنّ حبّهما يبقى. إذ إنهما يستطيعان أن يكتشفا، بكثير أو قليل من الصراحة، أنّ قدرة الحبّ الذي يجمعهما ويحييهما تفوق قواهما، وكأنّما يوجد في أعماق حبّهما سرٌّ، أو كأنّ هناك حبًّا آخر يحمل حبّهما ويحييه. ومن دون التقليل من قيمة الحبّ البشريّ، فإنّ الشعور بفقرهما قد يقودهما إلى إدراك السرّ العميق الكامن وراء الحبّ البشريّ.

نعم، للحبّ البشريّ ينبوعٌ، وهو حبّ الله الذي تجلّى في يسوع المسيح. وهو حبٌّ أقوى من الموت. وهكذا فإنّ حلم الكمال والأبدية، الذي هو في قلب كلّ حبّ، ليس حلمًا باطلاً أو مجرد وهم. فحين يعترف الزوجان بينبوع حبّهما، يجدان، في التواضع، ديناميّة تحوّل حلمهما إلى رجاءٍ ثابت.

هكذا نفهم بوجه أفضل معنى سرّ الزواج. ففي نور الإيمان بيسوع المسيح، يستطيع الزوجان أن يعدّ أحدهما الآخر بحبّ أبديّ. لأنّهما يتقان لا بقدرتهما على الحبّ فحسب، بل بروح المسيح الذي يسكنهما، أي بقدرة حبّ الله نفسها التي يكتشفان حضورها في عمق حبّهما. كما أنّهما يستقيان هذه القدرة أيضًا من الجماعة المسيحيّة الموجودة حولهما. ذلك بأنّه عندما تحتفل الكنيسة بزواجهما، فإنها تعترف بأصالة حبّهما، وتعدّهما بمساعدتهما وتكفّهما بأن يشهدا أمام الجماعة المسيحيّة وأمام جميع معارفهما لحبّ الله الخصيب الذي لا يزول ...

إنّ رجلاً وامرأة يعيشان حبًّا راشداً ليسا مغرّمين بكائن بشريّ مثاليّ بل بكائن حقيقيّ، فالواقعيّة هي صفة جوهرية من صفات البلوغ والرشد. وهذه الصفة تمكّنهما أن يريا في الآخر شخصًا حقيقيًّا لا

عَوْضًا مِثَالِيًا لِنَقْصِهِمَا. فَلَأْتُهُمَا يَحِبَّانِ شَخْصًا حَقِيقِيًّا، تَصْبِحُ نَفَائِصُ الْآخِرِ وَأَوْهَانُهُ مَشْمُولَةٌ فِي حُبِّهِمَا. وَقَبُولُهُمَا لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْخَاصَّةِ بِالشَّخْصِ يَعْطِي لِحُبِّهِمَا صَبِغَةً أَعْمَقَ وَأَعْنَى.

ذَلِكَ لِأَنَّهُ يُخْشَى دَائِمًا أَنْ نُحِبَّ صُورَةً نَصْنَعُهَا عَنِ الْآخِرِ بَدَلًا مِنْ أَنْ نُحِبَّهُ هُوَ نَفْسَهُ. أَوْ أَنْ نُحِبَّ عَوْضًا لِأَنْفُسِنَا. وَذَلِكَ هُوَ يَنْبُوعُ خِيْبَةِ أَمَلٍ، حَتَّى يَثْبُتَ بوضوح أَنَّهُ يَخْتَلِفُ عَنِ الصُّورَةِ الَّتِي صَنَعْنَاهَا عَنْهُ. هَذَا شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، عِبَادَةِ الْقَرِيبِ، فِعْبَادَةِ الْأَصْنَامِ هِيَ عِبَادَةُ صُورَةٍ. هَذَا وَإِنَّ مَحَبَّةَ الْآخِرِ كَمَا هُوَ تَجِيزٌ أَيْضًا الْاعْتِرَافَ بِالْإِلَهِ الْحَقِيقِيِّ. إِنَّ مَحَكَّ الْإِيمَانِ الْأَصْلِيَّ هُوَ حُبُّ الْقَرِيبِ: "مَنْ قَالَ إِنَّهُ يَحِبُّ اللَّهَ وَلَا يَحِبُّ أَخَاهُ هُوَ كَاذِبٌ" (القديس يوحنا). وَلَكِي نَحِبُّ اللَّهَ حَقًّا، يَجِبُ أَنْ نُحِبَّ الْآخِرَ حَقًّا. فَإِنْ كُنَّا لَا نُحِبُّ أَخَانَا كَمَا هُوَ، يُخْشَى أَنْ يَكُونَ حُبُّنَا لِلَّهِ عِبَادَةُ أَصْنَامٍ لَا حُبًّا لِلَّهِ الْحَقِيقِيِّ. عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، يَقَعُ الزَّوْجَانِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ حِينَ يَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ تَهْرُبًا مِنْ صَعُوبَاتِ اللَّقَاءِ الْحَقِيقِيِّ فِيمَا بَيْنَهُمَا. يُقَالُ أحيانًا إِنَّ حُبَّ اللَّهِ صَعْبٌ لِأَنَّنا لَا نَرَاهُ. قَدْ يَكُونُ مِنَ الْأَسْهَلِ، بِمَعْنَى مَا، أَنْ نُحِبَّ اللَّهَ الَّذِي لَا نَرَاهُ، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ سِوَى صَنْمِ أَيِّ صُورَةٍ نَصْنَعُهَا عَنْهُ وَهِيَ صُورَةٌ تَوَافَقْنَا. إِنَّ وَصِيَّةَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ " لَا تَصْنَعْ لَكَ مَنحوتًا أَوْ صُورَةً " لَيْسَتْ وَصِيَّةً تَتَوَجَّهُ إِلَى أَشْخَاصٍ بَدَائِيِيِّينَ بَعِيدِينَ عَنَّا. إِذْ عَلَيْنَا دَائِمًا مَقَاوِمَةَ التَّجْرِبَةِ الَّتِي تَدْفَعُنَا إِلَى أَنْ نَجْعَلَ مِنَ اللَّهِ فِكْرَةً عَلَى قِيَاسِنَا. إِنَّ الزَّوْجِ، إِنْ كَانَ عَرَفَانًا لِلْجَمِيلِ وَحُبًّا لِلْآخِرِ كَمَا هُوَ، هُوَ طَرِيقٌ إِلَى الْإِلَهِ الْحَقِيقِيِّ. نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ، فِي هَذَا الْمَعْنَى، قَوْلَ بُولْسِ إِلَى أَهْلِ تَسَالُونِيْقِي "... وَكَيْفَ اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ وَتَرَكْتُمْ الْأَوْثَانَ لِتَعْمَلُوا لِلَّهِ الْحَقَّ الْحَيَّ " (١ تَسَالُونِيْقِي ٩/١).

الزَّوْجَانِ الْبَالِغَانِ، يَحْتَرَمُ كُلُّ مِنْهُمَا شَخْصِيَّةَ الْآخِرِ. وَهَذَا الْاحْتِرَامُ يَتَّخِذُ عِدَّةَ أَشْكَالٍ. عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، قَدْ يَكُونُ لَدِيٍّ مِثَالٌ أَعْلَى سَامٍ جَدًّا، وَأَرِيدُ أَنْ يَشَارِكُنِي فِيهِ الزَّوْجُ الْآخِرُ. إِنَّ رَغْبَةَ الْآخِرِ فِي مِشَارِكَتِي فِي ذَلِكَ الْمِثَالِ الْأَعْلَى هِيَ رَغْبَةٌ مِمْتَازَةٌ. وَلَكِنْ، إِنْ رَأَيْتُ الْآخِرَ يَلْهَثُ، فَالْحُبُّ يَقْتَضِي مِنِّي أَنْ أَكْتِفَ خَطَوَاتِي عَلَى خَطْوَتِهِ. وَإِنْ اسْتَلْزَمَ ذَلِكَ مِنِّي تَخْفِيفَ سُرْعَتِي، فَأَنَا لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ عَنِ تَنَازُلٍ أَوْ خُضُوعٍ، كَمَا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنِّي هَجَرْتُ الْحُبَّ وَابْتَعَدْتُ عَنِ الْكِيَانِ الزَّوْجِيِّ.

يَجِبُ أَنْ نَحْتَرِمَ الْغَيْرِيَّةَ. لَا شَكَّ أَنَّ الْحُبَّ الزَّوْجِيَّ هُوَ اتِّحَادٌ تَامٌ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ انْتِمَاجًا، بِمَعْنَى أَنَّهُ سَيَكُونُ دَائِمًا أَمَامَنَا شَخْصَانِ مُخْتَلِفَانِ وَقَدْ يَكُونُ جَوَابُ الْوَاحِدِ إِلَى دَعْوَةِ الْحُبِّ مُخْتَلَفًا عَنِ جَوَابِ الْآخِرِ. إِنَّ خِدَاعَ انْتِصَهَارِ الشَّخْصِيَّاتِ التَّامِ قَدْ يَكُونُ خَطْرًا، لِأَنَّهُ يُخْشَى أَنْ يُوَدِّيَ، إِذَا صَحَّ الْقَوْلُ، إِلَى امْتِصَاصِ أَحَدِ الزَّوْجِيْنَ مِنْ قِبَلِ الْآخِرِ. عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، إِذَا كَانَ أَحَدُهُمَا، بِفَضْلِ تَقَافَتِهِ وَاخْتِبَارِهِ، لَا سِيَّما اخْتِبَارَهُ الرُّوحِيَّ، يُبْهَرُ الْآخِرَ وَيَسْحَقُهُ وَلَا يَسْمَحُ لَهُ بِالتَّفَتُّحِ ... فَقَدْ يَأْتِي يَوْمٌ يَحْدُثُ فِيهِ لَدِي الْآخِرُ تَنْبَهُ وَتَمَرُّدٌ. وَعَلَى الْعَكْسِ، قَدْ يَسْتَطِيعُ أَحَدُ الزَّوْجِيْنَ أَنْ يَتَخَلَّى، بِإِدْرَاكِ أَوْ بَغَيْرِ إِدْرَاكِ، عَنِ مَسْئُولِيَّاتِهِ الزَّوْجِيَّةِ، مِنْ دُونَ أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَى أَنَّهُ يَخْتَارُ بِذَلِكَ طَرِيقًا سَهْلًا، وَأَنَّهُ عِنْدَمَا يَنْدَرِّعُ بِوَضْعِ ثِقَّتِهِ فِي الْآخِرِ، يَنْقَلُ مَسْئُولِيَّاتِهِ ...

الزَّوْجِ طَرِيقُ قَدَاسَةٍ

إِنَّ الزَّوْجِ، بِسَبَبِ تَطَلُّبَاتِهِ وَكُنُوزِهِ، وَانْتِصَارَاتِهِ وَهَزَائِمِهِ، وَلَا سِيَّما بِسَبَبِ الْبَعْمِ السَّرِيَّةِ الَّتِي يَشْتَمَلُ عَلَيْهَا، هُوَ طَرِيقٌ إِلَى الْقَدَاسَةِ. إِنَّهُ يُنْضِجُ الْقَلْبَ الْبَشَرِيَّ نَتِيجَةً كُلِّ مَا يَتَطَلَّبُهُ مِنْ عَطَاءٍ وَتَجَرُّدٍ. وَهُوَ يَسَاعِدُ عَلَى نَمُوِّ الْمَحَبَّةِ لَدِيَّ كُلِّ مِنَ الزَّوْجِيْنَ حَتَّى يَوْصِلُهُمَا إِلَى عَتَبَةِ اللَّقَاءِ الشَّخْصِيِّ بِالْمَسِيحِ، وَهَذَا هُوَ الْإِنْطِلَاقُ الْحَقِيقِيُّ فِي طَرِيقِ الْقَدَاسَةِ. وَإِذَا انْقَلَبَتْ رِفَاهِيَّةُ حُبِّ زَوْجِيٍّ بَشَرِيٍّ الطَّابِعِ، لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِإِصَالِ الزَّوْجِيْنَ إِلَى حُبِّ " فِي الرَّبِّ " جَدِيدٍ كَلِيًّا.

ما أسعد الأزواج - وأقول ذلك عن قناعة لأتني أعرف العديد منهم - الذين يطمحون في حبهم إلى التعاون الدائم في مزيد من السخاء، تلبيةً لدعوة ذلك الذي عرّف نفسه دائماً، في العهدين القديم والجديد، بأنه العريس ...

لأولئك الأزواج يتحقّق وعدُّ الرب: " كلّ من ترك بيوتاً أو أخوة أو أخوات أو أباً أو أمّاً أو بنين أو حقولاً لأجل اسمي، ينال مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية" (لوقا ١٨/٢٨-٣٠) و (متى ١٩/٢٩). إنّ مائة الضعف هي حبّ زوجي جديد ما كانت تخطر على البال قوّته ولطفه في الساعات المشعة من أولى خطوات الزواج.

من خسر نفسه يخلصها، ومن خسر حبه يخلصه. لعلّ الأزواج كانوا يظنّون أنّهم، بسعيهم إلى تلبية دعوة المسيح إلى الزهد في جميع خيراتهم من أجل حبه، يخاطرون باتحادهم. إلا أنّهم يكتشفون بالخبرة أنّه حيث يوجد الحبّ الحقيقي، يحضر الله".

رفاق طريق

هذا التعريف للزواج المسيحي بعيدٌ جداً عن النظرة الشائعة التي لا ترى في سرّ الزواج إلا نجدة إلهية لشفاء الحبّ البشري وإغنائه وجعله أسعد وأثبت. إنّها نظرة ساذجة تعتبر النعمة واسطة لكي يعيش الإنسان في سعادة على الأرض، كما لو كان المسيح قد جاء أولاً ليسهل السعادة البشرية.

هل يعني ذلك أنّ على الأزواج المسيحيين ألاّ يُعيروا الحياة الزوجية والحقائق التي تولّفها إلا القليل من الاعتبار؟ إلى الذين يفكّرون على هذا النحو، أجيّب بمقارنة: إنّ الخبز والخمر، حين يفسدان، يُصبحان غير أهل لأن يتحوّلا في سرّ القربان إلى جسد المسيح ودمه. فكذلك، إنّ تركّ الأزواج نوعيّة زواجهم البشريّة تُفسد، فإنّ زواجهم لا يبقى تلك الوسيلة التي تستعملها النعمة لتقدّسهم. لأنّ الحياة الزوجية وحدها، التي تُعاش في الملء، تمكّن السرّ الكنسيّ من إخراج ثماره.

إذاً، فلا مبالغة في القول إن الحياة الزوجية هي طريق قداسة، ولكن بشرط أن يُلفت الانتباه إلى أنّ علّة وجود الطريق هي أن يوصل إلى غاية، وأنّ طموح رفاق الطريق يجب أن يكون، لا الاستقرار على الأرض، بل السير معاً نحو بيت الأب، حيث سيجدون أنفسهم "رفاق أبدية".

دروب تفكير

- كيف تطوّر حبّنا الزوجي على مرّ السنين؟ هل تعمق وتطهر؟ ما هي العقبات التي تعترضه اليوم؟
- هل ساعدتنا حياتنا الزوجية على التقدّم في اكتشاف الله المحبّة؟ وفي أي شيء؟
- ماذا مثلّ لنا سرّ الزواج؟ كيف عشناه؟
- أيّ مكان شغلت الصلاة والتعاون الروحي في بناء كياننا الزوجي؟

نقاط الجهد الملموسة

نقترح عليكم أن تتوقفا بوجه خاص عند نقطتين من نقاط الجهد الملموسة التي تقترحها الحركة لتساعدنا على التعمق في حبنا الزوجي على العيش منه: الصلاة الزوجية وواجب المجالسة.

- الصلاة الزوجية :

- هل نقوم بانتظام بالصلاة الزوجية ؟ أي شكل تتخذ هذه الصلاة عادة ؟ وهل تطوّر ؟
- أيّ كنوز سمحت لنا باكتشافها ؟
- ماذا توقّر لنا اليوم ؟
- أيّ صعوبات تعترضنا ؟
- أيّ مساعدة نتمنى الحصول عليها من الفرقة ؟

- واجب المجالسة :

- هل نقوم به بانتظام ؟ بأيّ صيغة ؟ أي كنوز نجد فيه ؟ بأيّ صعوبات نصطدم ؟
- هل تكرر واجب المجالسة يساعدنا على أن نحب بعضنا بعضاً " بحسب المسيح " (القدّيس بولس)، أي بحسب تطلّبات حبّ قوامه المحبة ؟
- كيف تستطيع الفرقة أن تساعدنا على أن نحسن ممارستنا لواجب المجالسة ؟

الفصل الثالث

حياتنا العائلية

شَبَّ أولادنا، في العديد من العائلات، وأصبحوا " أولادًا كبارًا".

إنهم وجه خصوبة حبنا. إنهم فرحنا ورجاؤنا، لا بل قلقنا أيضًا، وأحيانًا وجعنا الأشد.

نريد أن نساعدهم على أن يبلغوا بلوغًا تامًا في جميع المجالات، ولكننا، أمام صعوبات العالم الحالي والعديد من العوامل التي تؤثر فيهم، كثيرًا ما نرى أنفسنا مجردين عاجزين. وفي بعض الأحيان، ألا نشعر بأن الظروف تتجاوزنا تمامًا؟ والشك - إن لم يكن شكلاً من اليأس - ألا يتسرب إلينا، حتى زعزعتنا في أمورنا الأكيدة، لا بل في إيماننا؟

وفي الوقت نفسه، هناك بيننا من اختبروا المحنة الأليمة، محنة حرمانهم من الأولاد الذين كانوا يرغبون فيهم إلى أقصى درجة. فنراهم يتحملون تلك المحنة في الإيمان، ويسألون أنفسهم: ماذا يقصد الرب من هذه المحنة؟ وأي خصوبة ينتظرها من عائلتنا؟

أيًا كان وضعنا، فإن سيرنا كوالدين لم يكن دائمًا ما حلمنا به عند زواجنا. من هنا فائدة القيام بجرادة ختامية وإلقاء نظرة واضحة إلى الوراء لنذكر جميع النعم والأفراح التي منحنا الرب إياها عبر أولادنا أو عبر أشكال خصوبة أخرى مختلفة، من دون أن ننسى الصعوبات التي واجهتنا وأنواع الفشل التي سمح الله بها. وانطلاقاً من ذلك نحاول أن نعرف مشيئته لمستقبل عائلتنا: أليس أولادنا هم أولاد أولاده؟

وثائق

أيها الوالدون، هل تحبون أولادكم

إن الأزواج الذين اكتشفوا بحماسة أمجاد الحب الزوجي في المسيحية والذين يجتهدون في أن يعيشوها، هل سيفلسون في مادة التربية؟

لا يمكنني الادعاء بأنني خالٍ من كل قلق. إذ قد بلغني مؤخرًا أن صبيًا في الخامسة عشرة من عمره حاول الانتحار، كما علمت بأن طالبًا أنكر إيمانه لينضم إلى شيعة ممارسائها غريبة. وبأن إحدى الصبايا تزوجت من مطلق. والثلاثة هم من عائلات مسيحية ممارسة. فبعد أن نبهتني تلك الأحوال الأليمة، جئت أطرح عليكم هذا السؤال: هل تحبون أولادكم حقًا؟ ...

أنتم مسيحيون. فلا يكفي إذاً أن تحبوا أولادكم، بل يجب أن تحبواهم مسيحيًا. وهذا مختلفٌ عن أن تعلموهم بعض الفضائل والممارسات الدينية. يجب أن تفهموا، وأن تساعدوهم على أن يفهموا نداء المسيح إليهم. يجب أن تساعدوهم على أن يصبحوا مسيحيين بالغين يلتون ذلك النداء بحريتهم الفتيّة ويلتزمون في مغامرة الحياة الكبرى، عازمين على التمسك بلوحة قيم معلمهم. إن لوحة القيم هذه، التي تخالف بصراحة لوحة قيم العالم الذي يعيشون فيه، يجب أن يُلقنوا ضرورة تقديرها منذ سنّ الطفولة، وأن يُرسيخوا حكمتها الكبرى: " من أراد أن يتبعني (أن يكون تلميذي)، فليحمل صليبه كل يوم ويتبعني"، من أحبّ أبًا أو أمًّا أكثر منِّي فلا يستحقني"، "إياكم أن تعملوا بركم بمرأى من الناس

لِكِي يَنْظُرُوا إِلَيْكُمْ"، "أَحْبَبُوا أَعْدَاءَكُمْ ... لتكونوا أبناء أبيكم الحقيقيين". "أطلبوا أولاً ملكوت الله، يُزاد لكم الباقي".

ولكن كيف تريدون أن يكتسب أولادكم فَهْمَ أحكام الإنجيل الكبرى وأن يقبلوا أن تكون الأولوية لديهم لطلب الملكوت، إن رأوكم تفاخرون أولاً بنجاحهم البشري: النجاح في البكالوريا، الوضع المرتاح، الزواج الناجح، الاعتبار الاجتماعي؟ إن المراهقين هم نافذو البصيرة للغاية!

لن تساعدوهم مساعدة فعّالة على أن يصبحوا تلاميذ المسيح الحقيقيين إلا إذا كنتم تحبّونهم على طريقة المسيح.

قبل أن يختار المسيح تلاميذه، وقيل أن يعهد إليهم بمهمّة، وفي الساعات الخطيرة، يقول لنا الإنجيل إنّه كان ينسحب إلى مكان قفر في الجبل حيث كان يقضي الليل كلّه في ألفة الأب. وأنتم؟ هل تصلّون حقاً من أجل أولادكم؟ في غياب الوسائل البشريّة، هل تكون صلاتكم مُلحّة، واثقة...؟ وفي الحياة اليومية، هل تصلّون من أجلهم؟

إنّ الصلاة تلد الحبّ، والحب يلد التضحية. "وما من حبّ أعظم من أن يعطي الإنسان حياته للذين يحبّهم". هل تذهبون حتى الحبّ الأعظم لكي تُنموا في النعمة أولئك الذين أنجبتموهم للحياة؟ ما أقلّ المسيحيين الذين يحبّون أولادهم حباً مسيحياً!

حب الزوجين المحقّق والمنقّى في الحياة العائليّة

إنّ الزّوجين، بانتقالهما من حجم "الزوجين" إلى حجم "العائلة"، يبلغان عالماً جديداً فيه بلا شكّ غنىّ لهما، ولكنّه يعقد الحوار الزوجي بانسجيمات جديدة: صوت الأولاد. إن مجيء الأولاد، الذي يأتي بتفجّر حياة لا يُصدّق، يفجر أجواء الألفة بين الزّوجين: قد يكون ذلك دخولاً في عالم أغنى، كما قد يكون أيضاً، للزوجين اللذين لا ينموان على قياس عائلتهما، فرصة لانفصالات يُرثي لها.

الحوار بين الوالدين والأولاد

يبدو هذا الحوار أمراً طبيعياً وعضوياً إلى أبعد حد، كما يبدو لأوّل وهلة أن كلّ عضو من أعضاء العائلة بات يشعر براحة أكبر للتعبير عن أفكاره. في الواقع، يمكننا القول إنهم يتكلمون كثيراً وغالباً بلا انزعاج. لكنّ الحوار الحقيقيّ يصبح عمليّة شاقّة.

نبدأ بالقول إنّ الأمور بين الوالدين والأولاد، إذا كانت غير حسنة، فالسبب يعود غالباً إلى أن الوالدين يريدون أن يعملوا أكثر من اللازم، لذلك سرعان ما يشعرون بالإرهاك، فيتوقّفون أحياناً عند أمور طفيفة، وأحياناً يُظهرون شيئاً من العدوانية، لأنّ الولد لا يتفق تماماً مع الفكرة التي يكوّنونها عنه. فوق ذلك، نراهم ينطلقون في الحياة مع عقدة عجزٍ مفترضة، يزيد لها خطورةً العديد من الكتب والمقالات التي تؤيد الأولاد دائماً، وضدّ الوالدين، متهمّة هؤلاء بجميع الصعوبات! وإذا اختلى الوالدون لبعض الوقت، فإنّهم يشعرون بشيء من الذنب يمنعه من التمتع تماماً بساعات حرّيّتهم... هذا الإفراط في التضحية لا قيمة له لا بالنسبة إلى الوالدين ولا إلى الولد. إذ إنّ الوالدين يشعرون

بالانزعاج فلا يعودون يفكرون إلا بمشاكلهم ويتوترون إلى حدٍ لا يطاق. وبالنتيجة يغضبون بسبب العزلة التي يفرضونها على أنفسهم، وينتهي الأمر بهم إلى الحقد على الولد (وإن بشكلٍ غير واع)، مع أنّ الولد لم يكن يطلب كل ذلك. من الواضح أن التضحيات غير المفيدة تولد المرارة والحالة العصبية والتعب ...

يجب على الوالدين أن يبدأوا بأن يكونوا في حالة تأهب وجهاز أمام الولد، من دون أيّ توقُّع لما سيكون ولما سيعملون. وعليهم أن يتجنّبوا بوجه خاص أن يفرضوا على ولدهم الخضوع والطاعة لما يفكرون فيه. فعليه وعليهم أن يستسلموا لما يمكن أن يحدث، إذ سيكون هذا الاكتشاف أروع ممّا تخترعه مخيلتهم.

إنّ العديد من الوالدين يرون أنّ الولد، في سن الطفولة، ليس عليه إلا أن يطيع، وعليه أن يمرّ بفترة تدريب. إنّ الكلام على التدريب خطير، أيّاً كانت سنّ الولد. ويجب أن تكون الطاعة معقولة، لا من وجهة نظرنا فقط، بل من وجهة نظر الولد أيضاً. إنّ المطالبة بطاعة فورية لا تقبل الجدل قد تكون مفيدة لطمأنة الوالدين، ولكن، أليس شرح الأمور للولد وإقناعه ومراعاة وجهة نظره أكثر تنقيفاً وفائدة له؟

إنّ كثرة الأوامر، ككثرة العقاب، لا يمكنها أن تؤدي إلا إلى تصعيد العصيان المعبر عنه أو المكبوت. فما تسعى إليه سلطة مفرطة وكثرة العقوبات بطريقة غير ماهرة، يمكن أن يحقّقه الانتباه إلى الولد والحوار معه، ربّما بطريقة أقل روعة، ولكن أكثر أماناً.

نضيف أنّ الصدق لا يُستغنى عنه في الحوار: فإنّ عمَدنا إلى التعامل بغثٍ مع الولد، نعرّضه للعيش في قلق دائم خوفاً من أن يُخدع من جديد أو أن يُهمل، فلا يعود يعلم إلى أيّ شيء يستند، ويروح يضحّم كلّ شيء، بسبب قلة ثقته في الناس وفي الحياة.

إنّ حاسة التقدّم هي عامل هام في التربية. وما أكثر الوالدين المستعجلين لأن يروا أولادهم ينجحون. لعلمهم يحلمون لأولادهم بالكمال الذي لم يبلغوه حين كانوا أولاداً!

الحوار بين الوالدين والمراهقين

عند دخول الولد في سنّ المراهقة، يتّضح تطوُّره ونزعته نحو الاستقلال. وكثيراً ما يؤكّد المراهق بلهجة شديدة أنّه يقدر أن يطير بجناحيه. من الواضح أن تربية "منفتحة" منذ الطفولة تجعل الانتقال إلى المراهقة أسهل.

أمّا اليوم، فإنّ العقبات تزداد من كون المراهقة تمتدّ طويلاً جداً، بسبب التكوين التقني والمدرسي المحدّد. فيجد الأهل صعوبة في مواجهة الوضع. إنّ شبان اليوم، الذين يبقون شباناً أكثر ممّن سبقهم، يحتاجون إلى حماية العائلة مدّة أطول. إلا أنّ تلك الحماية يجب أن تظهر في صيغ جديدة.

للوضع الحالي ميزة أخرى، وهي أن المراهقين ينالون من خارج العائلة أكثر بكثير ممّا كان يجري في الماضي، ويتجنّبون هكذا بقدر أكبر نفوذ الوالدين والعائلة.

يحسن بنا، في هذا الإطار، أن نذكّر ببعض الحقائق التربوية القاسية:

تفترض التربية حسنَ القبول: فإذا صحّ أن المراهق هو أكثر قبولاً لأسباب ما يُطلب منه، فلا شك أنّه أكثر شعوراً، في الوقت نفسه، للروح الذي يُطلب منه ما يُطلب وللإمكانيات الحقيقية الموجودة لديه للتلبية.

التربية تفترض البصيرة: أولاً، المطالبة بأمور واقعية ومعقولة، لا بأمور مجردة، ولا انطلاقاً من بعض الأحلام، بل بالنسبة إلى ذلك الولد الذي هو أمامنا : بالنسبة إلى عمره وتاريخه.
التربية تفترض بذل النفس. قيمة التربية هي قيمة المرَبِّي.

حين يصل الأولاد إلى سنّ المراهقة، عندئذٍ يتعلّم الوالدون مجانية التربية. فالأولاد يتطلّبون كثيراً من التعب، لكنّ الوالدين ينالون مكافأة حسنة، ولذلك نستطيع القول إن الحب الوالديّ يُطهر الحبّ الزوجي في ما قد يكون فيه من أنانية : من أعطى حياته وجدها.

دروب تفكير

- ماذا كان مشروعنا العائليّ حين تزوّجنا ؟ وماذا حقّقنا منه ؟ كيف استقبلنا أولادنا؟ ما هي الأفراح والمحن التي عشناها غيرهم ؟
- كيف نحبّ أولادنا ؟ هل طهّرنا حبّنا من كلّ ما يحتويه الشعور الأبوي أو الأموميّ من ملكيّة عفوية ومن كلّ ميلٍ واعٍ أو غير واعٍ إلى أن نتوحّى عبرهم الحصول على ترضية ؟ هل نحبّهم من أجل أنفسهم، كما يحبّنا الله ؟
- ما هي اليوم أفراحنا واهتماماتنا كوالدين؟ ما هي علاقاتنا الخاصة بأولادنا المراهقين؟
- إن كنّا نعيش محنة الحرمان من الأولاد، كيف قبلناها ؟ وكيف فهمنا وعشنا خصوبة أسرتنا؟

نقاط الجهد الملموسة

نعرض عليكم أن تتوقّفوا عند نقطة من نقاط الجهد الملموسة التي تقترحها الفرقة لتساعدنا في حياتنا العائلية : الصلاة العائلية.

- أي دور مثّلت الصلاة العائلية في بنيان خليّتنا العائلية ؟
- كيف تطوّرت تلك الصلاة ؟
- كيف تستطيع الفرقة أن تساعدنا على أن نحياها بوجه أفضل ؟

الفصل الرابع شهادتنا

" تعرض فِرَق السيِّدة على أعضائها حياةَ فرقةٍ ووسائلَ جهِدٍ ملموسةً لتساعدهم كزَّوجين في حبِّ الله والقريب. فهي تُعدهم هكذا للشهادة التي يُفرض على كلِّ زَوْجِين أن يختارا صيغتها. فإن لم تكن الفرَق حركةً عمل، فإنها تريد أن تكون حركةَ فعَّالين "

نحن مُلتَمسون من جميع الجهات لتأمين خدمات وتحمل مسؤوليات في العالم وفي الكنيسة. لا شك أننا لم ننتظر هذا اليوم لنلتزم في خدمة إخوتنا ونصبح "فعَّالين". لكننا نستطيع أن نكون "ملتزمين" جدًّا، من دون أن نكون لهذا السبب شهودًا أصليين لله الحيِّ. ويعود ذلك إمَّا لأنَّ معنى الشهادة المسيحيَّة العميق قد غاب عن نظرنا، وإمَّا لظهور الروتينية التي تُنمِّي فتورَ العزيمة، فلم نعد نسعى في مختلف التزاماتنا انطلاقًا من كوننا "شهود المسيح"، وإمَّا لأنَّ نشاطنا في خدمة إخوتنا نستخدمه كحجَّة غيابٍ لنُهمل عملاً آخر أصبح مع ذلك أوليًّا.

ومن جهةٍ أخرى، كلُّما ازداد اهتمامنا بمهنتنا ومسؤولياتنا والتزاماتنا، ازدادنا توظيفاً لأنفسنا، وكلُّما اشتدَّ خطر عدم التوازن الشخصي (على المستوى الطبيعيِّ والنفسيِّ، وحتى الروحيِّ)، وكلُّما اشتدَّت الصعوبات في أسرتنا، اشتدَّت التوتُّرات في حياتنا العائليَّة.

فمن الضروريِّ إذاً أن نعد من حينٍ إلى حين إلى الرجوع قليلاً إلى الوراثة بالنسبة إلى مختلف التزاماتنا فنتساءل، في وقت واحد، عن أصالة الشهادة التي نعطيها وتعطيها أسرتنا، وعن الأولويات التي يجب أن نراعيها في التزاماتنا، آخذين بعين الاعتبار النداءات التي يوجِّهها المسيح إلينا في هذه الأيام.

وثائق

حب يفتح

إنَّ الحبَّ الزوجيَّ يأتي من عند الله، فلا يمكن أن ينغلق على الكائنات اللذين يحبُّ واحدهما الآخر. بل يجب أن يفتح على الآخرين.

ينفتح أولاً على الولد: " فإنَّ الزواج والحبَّ الزوجيَّ مخصَّصان للإنجاب والتربية" (فرح ورجاء). وينفتح أيضاً على سائر الناس، فإنَّه كلُّما تقدَّم الإنسان في حبِّ أصيل، وضع نفسه في خدمة الآخرين. وهكذا يصبح الأزواج شبيهين بالله. فالله، إن جاز الكلام، لم يحبس نفسه في تمام حبِّه، بل انفتح علينا. إنَّ أبانا السماويَّ أحبَّنا حتى أنَّه أرسل ابنه الوحيد لكي نشترك في حياته ونُقاد بروحه.

انفتاح الزَّوجين على الآخرين

حين يؤخذ أحدُ الزَّوجين بحبِّ الآخر، يُخشى ألاَّ يفكر إلاَّ فيه. ويصحَّ ذلك بوجهٍ خاصٍّ في مطلع الزواج. فيُخشى عندئذٍ أن يحقِّق الزَّوجان حبًّا بين شخصين، وينسيا الآخرين مكتفين بأن يكونا معاً.

ولكن، كيف يمكن أن تنتج الأنايئة من الحب؟ في الواقع، يدل وجود الأنايئة على أن الزوجين لا يعرفان حتى الآن أن يحب الواحد الآخر حباً أصيلاً، لأن حبهما لم يطهر بما يكفي.

فعليهما إذاً أن يُعيدا نفسيهما إلى بساط البحث ويفتحا أكثر من ذلك على الآخرين. ولكي يصلا إلى هذا الهدف، يجب عليهما، في البدء خاصة، أن يبذلا جهداً كبيراً. لكن ذلك الجهد، يجب أن يبذله الاثنان معاً، وفي ذلك الانفتاح على الآخرين، سيجدان تجديداً لحبهما. وكذلك يمكن القول إن حب الزوجين المتبادل سيصبح حباً أفضل حين يحبّان الآخرين معاً ويضعان نفسيهما في خدمتهم. فيعود ذلك بالفائدة على العائلات والأصدقاء.

لا شك في أنه يجب مراعاة التوازن بين متطلبات الألفة الزوجية والانفتاح على الآخرين. لكن هذا التوازن يتحقق بسهولة معقولة حين نبحث عنه معاً. فليس الانفتاح على الآخرين هروباً وليست الألفة الزوجية أنانية. إنهما، في الواقع، مظهران مكملان لحب واحد يتفتح كل يوم ويتطهر.

الزوجان الملتزمان في الأنشطة الدنيوية وفي الرسالة

إن عالمنا في هذه الأيام يقتضي صيغاً انفتاح جديدةً. فالأزواج، في داخل مجموعتهم الاجتماعية وفي داخل البلدان التي يعيشون فيها، يجب أن يشعروا بأنهم مسؤولون عن خير الجميع. أقول: الزوجان، فإنّه من الخطأ أن نحفظ للرجل فقط مسؤولية الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وهذا شأن وجهة النظر الرسولية أيضاً: فقد استنجد المجمع الفاتيكاني الثاني كثيراً بالعلمانيين لكي يقوموا برسالتهم في الكنيسة، إما في مهمات كنسية ليساعدوا الكهنة، وإما في القيام بأنشطتهم الحياتية : وهي رسالة العلمانيين الخاصة.

هنا أيضاً، نجد خطراً مزدوجاً: خطر الانكفاء إلى داخل العائلة، وسدّ الأذنين عن نداءات المسيح والبشر، وخطر المبالغة في بذل النفس في النشاطات الحياتية أو في الرسالة، فلا يبقى الوقت اللازم للتوازن في الحياة الزوجية أو في تربية الأولاد.

إنّ حلّ المشكلة يكون أسهل، لو اتّجه جميع الأزواج اتّجهاً صحيحاً. في الواقع، ما من تعارض بين متطلبات الحب الزوجي الحقيقية وبذل النفس في سبيل الآخرين. بشرط أن يبقى توازن ضروري في حياة العائلة، فالالتزام في خدمة الآخرين في مختلف المنظمات الاجتماعية أو السياسية أو في الحركات الرسولية يوفّر للأزواج انشراحاً جديداً لحبهم. إليكم شهادة بسيطة لزوجين مسيحيين ملتزمين في خدمة الآخرين، تقول المرأة: "نرى الواحد الآخر أقل، إنما يحب واحدنا الآخر بوجه أفضل".

ذلك بأنّ العمل المباشر في خدمة الآخرين يؤدي عادة إلى تعميق الاتحاد بين الزوجين. فكلّ منهما يفرح بمشاركته في عمل الآخر، ويكتشفه بقدر أكبر في عمله، ويتألم معه. وبذلك يتوحد الزوجان في خدمة البشر لكي يعملوا معهم وبيشّراهم بالمسيح.

وفي الوقت نفسه، ولأنّ الاثنين لا يفترقان، فإنّ الحبّ الزوجي يساعدهما على تقديم خدمة أفضل، فلا يعود الزوجان منفردين في العمل، بل يصبحان أقوى وأشدّ فاعليةً. ولأنّهما يفهمان ويحبّان الواحد الآخر، فإنّهما يريان بشكل أوضح لأنّهما فكراً معاً. إنّ الحب والعمل يتفتحان معاً في وحدة عميقة وفي دينامية أعمق.

الزوجان شاهدان للإله الحيّ

أن نكشف لزمنا وجه الله الحقيقيّ، هذا هو عمل الكنيسة كلّها.

أحزّرُ رَدَّ فعلِكما: "البيت كبير، كبير جدًا. ليس عندنا الوقت ولا الاختصاص". وماذا لو أجبتكما: إنكما أهلٌ بوجه خاص للقيام بهذه الرسالة، تحديدًا لأنكما زوجان، فعندكما موهبة خاصة. على كل حال، فلكي تكونا أولئك الشهود الذين ينتظرهم العالم، لا تحتاجان إلى ترك أعمالكما العائليّة والمهنيّة. ولا يُطلب منكما أن تذهبا إلى حرب صليبيّة بعيدة.

أوضّحُ فكرتي: إنّ العالم الملحد يرجو من حبكما الزوجي، من دون أن يشعر، شهادة جوهرية. سأكلّمكما أولاً عن الشهادة التي يجب عليكم أن تعطوها بحياتكما، ثم بكلامكما.

شهادة الحياة

لننظر من قريب إلى رسالتكما كشاهدين لله. إنّ الطريقة الأولى لتأديتها هي أن تعيشا حبكما بمنتهى الكمال، وأن تعملوا على أن يُظهر حبكما جميع مُكوّناته، وأن يبدو أمينًا وسعيدًا وخصيبًا. لا شك أنّ ذلك يفوق إمكاناتكما. وإذا لاحظتما أنّ الشر يعمل في كيانكما الزوجي، فلا بدّ لكما من أن تستجدا بنعمة المسيح مخلصكما ونعمة سرّ الزواج. فيصبح اتحادكما شاهد الإله المخلص، لا شاهد الإله الخالق فقط.

وأنتما تشهدان بطريقة أوضح عندما تكون شهادتكما شهادة أشخاص مولعين بالله ومنتظرين بفارغ الصبر أن يتحدوا به. إنّ الله، بالنسبة إليكما، هو الحقيقة الكبرى، وكل شيء آخر يُنظر إليه بالنسبة إلى الله. إنكما إحدى خلايا الكنيسة. والناس يكتشفون عندكما اهتمامًا بالبساطة والمحبة، وحكمًا إنجيليًا عن الأحداث، واستقلالًا عن العالم والموضة. هكذا تكونان في العالم شاهدين للإله الحي.

قد تقولون لي: إنّ صورة الزوجين المسيحيين تفترض أنّ المشكلة محلولة، أي أننا قدسيان. لا، فإنّي لم أتحدّث عن القداسة، بل عن ابتغاء الله واللجوء إلى المسيح المخلص للتغلب، كلّ يوم، في الحياة الزوجية والعائليّة، على التجارب والعقبات.

شهادة الكلام

ليست المسألة: هل يجب الكلام على الله، بل كيف نتكلّم عليه من دون أن نخونه؟ فإنّ الله هو إلهٌ محجوب، لا يُعرّف. كتب القديس توما الأكويني: "في نهاية معرفتنا، نعرف الله بأنّه غير معروف. بالنسبة إلى عقلنا، هذه طريقة كاملة في الدخول إلى معرفة الله: أن نعترف أنّ الجوهر الإلهي هو فوق ما نستطيع أن ندركه في هذه الدنيا. ومع ذلك، فإن الله، لكي يعرّف عن نفسه، خاطر باستعمال اللغة، أي بتجسد الكلمة. أعطانا نار قداسته الملتهمّة، إنّما في قلب إنسانيّ: " إنّ الله أحبّ العالم حتى أنّه أعطانا ابنه الوحيد" (يو ١٦/٣). نعم، بفضل حبّ الرجل والمرأة، أصبح الزوجان دليلًا للسرّ الذي لا يُوصف. أيها الزوجان، بفضلكما، نستطيع أن نلمح سرّ الله الثالوث، تلك الشمس الدافئة، وحماسة الأشخاص الثلاثة الذين يحبّ بعضهم بعضًا. ذلك هو الله الذي، بحياتكما وأقولكما، عليكم أن تكشفاه لأولادكما أولاً، ثم للعالم أجمع.

رسالة الزوجين التبشيرية

واجب التبشير هو واجبنا جميعًا، فهو رسالة الكنيسة نفسها، كما يذكر به، من أوّل صفحاته، مرسوم المجمع الفاتيكاني الثاني " نشاط الكنيسة الإرسالي " (مر ١٦/١٦).

إنّ رسالة الكنيسة كلّها. فالإكليريكيّون واللاهوتيّون والمرسلون، لهم، ولا شك، دورهم الخاص. لكنّ كلّ مسيحيّ مدعوٌّ إلى المشاركة فيه. فقد عهد القديس بولس إلى المجمع بإعلان بشارته السلام (أف ١٥/٦). هذا وإنّ المسيحيّين الأوّلين الذين شتّتهم الاضطهاد "أخذوا يسرون تلقائيًا من مكان إلى آخر مبشّرين بكلمة الله " (رسل ٤/٨). أمّا أهل فيليبّي فإنّهم شاركوا بولس "في الدفاع عن البشارة وتأييدها " (فل ٧/١). وفي الطرف الآخر من تاريخ الكنيسة، شدّد المجمع الفاتيكاني الثاني على مسؤوليّة الشعب المسيحيّ كلّ، بمن فيهم العلمانيّون. يمكننا أن نُكثر الأمثال والشواهد. وكلّ ذلك يوجز في صرخة بولس : "الويل لي إن لم أبشّر " (١ قور ١٦/٩).

ولكن، ما معنى التبشير بالإنجيل ؟ معناه الإعلان عن المسيح بشهادة الحياة والكلام. لا يمكننا أن "نقول" الإنجيل من دون أن "نعيشه". ولا يمكننا أن نعيشه من دون أن نشعر بالحاجة إلى أن نعلنه.

إنّ عيش الإنجيل هو استقبال التجسّد على أنه البشريّ الحاليّة دائمًا. أي أن نجعل من القيم الإنجيليّة محكًّا تصرّفاتنا. إنّ خصوصًا أن نعيش اليوم من المسيح وفي المسيح ومع المسيح، أي أن نحمل على محمل الجدّ أنه الطريق والحق والحياة.

إنّ الشروط لأن نقول الإنجيل نجدها في الإنجيل نفسه. يكفي أن نعيد قراءة التطويبات أو خطاب الإرسال: فالفقر والاستعداد لخدمة الآخرين وروح السلام هي التي تمكّن من إعلان البشريّ. أمّا محتوى تلك البشريّ فإنّه الدعوة إلى التوبة (مر ١٢/٦) وهبة السلام (لو ١٠ / ٥-٦) ومجيء ملكوت الله (لو ٩/١٠) للجميع، ابتداءً بأفقر الناس.

ولكي نعلن الإنجيل، يحسُن أن يُلبّي كلّ واحد منّا تلك الشروط ويرتبط بهذا المحتوى، لا بل من الأفضل أن نجتهد معًا. فإنّ الجماعة الروحيّة والجماعة العائليّة وجماعة الفرقة هي أمكنة مناسبة يكون فيها التعاون خصبًا من أجل أن نعلن الإنجيل في كماله وأن نتعلّم كيف نجعله حاضرًا في عالمنا وفي أيامنا.

حين يجتمع الذين "يجعلون من الإنجيل شرعةً عائلتهم"، كيف لا تكون جماعتهم إنجيليّة وتبشيريّة ؟ إنه واجب يتعيّن علينا أخويًا التذكير به بعضنا لبعض. فإن غاب هذا النّفس الذي تزيّد فرقتنا أن نستقبله فيه وأن ننقله، لا تكون إلاّ كاريكاتورًا أو رسومًا هزليّة.

" تُرسل روحك فيخلقون وتجدد وجه الأرض " (مز ١٠٤ / ٣٠). أمام الصعوبات التي تعترضنا لعرض الرسالة الإنجيليّة في أيامنا، نعرف أين نجد ينبوع كلّ إبداعيّة وكلّ تجديد. "لا يهتمكم حين يُسلمونكم كيف تتكلّمون أو ماذا تقولون. فسيُلقى إليكم في تلك الساعة ما تتكلّمون به. فلستم أنتم المتكلّمين، بل روح أبيكم يتكلّم بلسانكم " (متى ١٩/١٠-٢٠).

علينا إذاً، أفرادًا وجماعة، أن نفهم إلى أي عمق في الالتزام يدعونا العمل التبشيريّ: لن يعطينا أحدٌ تعليماتٍ حول ما يجب عمله، بل يجب أن نعيه في نور الروح القدس: "ستكونون لي شهودًا". يشمل ذلك التزامنا بأن نلبس عواطف المسيح. وأن نكون مستعدين " لأن نجود لا ببشارة الله فقط، بل بأنفسنا أيضًا " (١ تس ٨/٢). وأن ننبت في الصلاة " لتتابع كلمة الرب مسيرتها " (٢ تس ١/٣).

دروب تفكير

- (١) - كيف فهم كلُّ منّا حتى الآن وكيف عاش مسؤوليته الشخصية بأن يشهد لله الحي؟
- متى وَعَيْتُ حَقًّا مسؤوليتي بأن أشهد ؟
 - كيف أتصوّر اليوم تلك المسؤولية ؟ بالنسبة إلى أيِّ مقاييس ؟
 - كيف أعيش اليوم تلك المسؤولية ؟ ما الذي يساعدني على أن أعيشها ؟ ما هي الأفراح والصعوبات التي تعترضني ؟
 - ما هي التزاماتي اليوم في خدمة أخوتي ؟ هل أجتهد، عبْرهم، بأن أنقل البشري ؟ هل تساعدني الفرقة في ذلك ؟
- (٢) - كيف شعرنا وعشنا مسؤوليتنا كزُوجين بأن نشهد للإله الحي ؟
- هل هناك، في نظرنا، شهادة خاصة بالزوجين ؟ على أيِّ شيء تقوم ؟ بأيِّ شروط نؤديها؟
 - هل نشعر، حتى الآن، بأهميّة تأدية الشهادة على صعيد الزُوجين ؟
 - هل عندنا كزُوجين التزامات معيّنة؟ ما هي ؟ كيف نعيشها ؟

نقاط الجهد الملموسة

نعرض عليكم أن تتوقفوا عند نقطتين تعرضها الحركة لتساعدنا على تأدية شهادة أفضل للمسيح :
قاعدة الحياة والمشاركة الحياتية.

قاعدة الحياة

- أي مكان تشغله قاعدة الحياة في حياتي الشخصية ؟ بالنسبة إلى أيّة مقاييس أختارها كل شهر ؟
- هل ساعدتني مدّة السنوات الأخيرة على التقدّم في حب الله وحبّ القريب ؟
- هل فيها صعوبات ؟ هل يساعدني زوجي والفرقة على اختيارها وعيشها ؟

المشاركة الحياتية

- هل نقوم بانتظام في الفرقة بمشاركة حياتية ؟ كيف وبأيّ روح ؟ أيّ صعوبات تعترضنا؟
- هل استطعنا، في المشاركات الحياتية، أن نجد جوابًا للأسئلة التي كُنّا نطرحها في شأن إحدى المسؤوليات الرسولية؟
- كيف نحسنّ مشاركاتنا الحياتية ؟

الفصل الخامس

الإصغاء إلى المسيح

" إخواني وأخواتي، لا تخافوا من استقبال المسيح ومن قبول سلطانه ! افتحوا الأبواب على مصراعها للمسيح ! ... في هذه الأيام، كثيرًا ما يجهل الإنسان ما يحمله في باطنه، في عمق روحه وقلبه. وكثيرًا ما يشعر بالتردد حول معنى حياته على هذه الأرض. فيساوره الشك الذي قد يتحوّل إلى يأس. أسألكم إذًا بتواضع وثقة وأتوسّل إليكم: اسمحوا للمسيح أن يخاطب الإنسان. فهو وحده عنده كلام الحياة، نعم، الحياة الأبدية". هذا ما قاله البابا يوحنا بولس الثاني في القداس الذي احتفل به في اليوم الأول من حبريته في كنيسة القديس بطرس برومة.

منذ العديد من السنين، نقرأ الكتاب المقدس، لا سيّما الإنجيل. نجتهد في تأمله وفي جعله "شرعة الزوجين". وهذا ما حوّل حياتنا شيئًا فشيئًا، مغيرًا سلّم القيم فيها ومُبدلًا نظرتنا إلى إخواننا وإلى العالم، ومضيفًا ضوءًا جديدًا على جميع أنشطتنا.

ولكن، هل نعرف حقًا أن نصغي إلى المسيح ؟ هل نعرف أن نفتح له أبوابنا الكبيرة لكي يستطيع أن يخاطب قلوبنا ويعطينا أقوال الحياة الأبدية، وعبر هذه الأقوال، أن يحوّل حياتنا ؟

كثيرة جدًا هي الأسئلة التي يجب أن نطرحها انطلاقًا من هذا السؤال الأساسي. نعرض عليكم أربعة أسئلة:

نجد كلمة الله أولاً في الكتاب المقدس. أي معرفة عندنا للكتاب المقدس ؟ هل نبذل جهدًا حقيقيًا لكي نوسّع هذه المعرفة ونعمّقها بانتظام ؟ إن بعض الذين يشاركون في حلقات دروس كتابية أو يلتزمون في التعليم المسيحي ... اكتشفوا، في البداية، فقر مناعتهم، فانكبوا على العمل. ولكن، ما أكثر الذين بقوا على مستوى ابتدائيّ جدًا وهم لا يشعرون بالحاجة إلى التقدّم، فحرموا أنفسهم من طعام أساسيّ لتقدّمهم الروحيّ ؟

من الضرورة دائمًا أن نعرف كلمة الله على وجه أفضل، إلا أنه من الضرورة أيضًا أن نستقبلها في الإيمان. ولكن، ألا نميل جميعًا إلى أن نقرأها ونصغي إليها وكأنّها رواية تاريخية معروفة من زمن طويل ؟ وهل تبقى كلمة الله مرجعنا الأساسي ؟ هل نستقبلها كل يوم بأذن جديدة وقلب جديد ؟ كأنّها كلمة يوجّهها الله إلينا شخصيًا في هذا اليوم ليُحيي إيماننا ويسند رجاءنا ويحوّل حُبنا ؟ أو كأنّها كلمة يعمل الله نفسه فينا من خلالها لكي يجددنا ويحوّلنا ؟

من الضرورة أن نستقبل تلك الرسالة الشخصية وأن نلبّي ذلك النداء الإلهي. ولا يمكننا أن نكتفي بانضمام الفكر أو القلب. علينا أن نلتزم طوال حياتنا بكلمته. لا شك أن الإنجيل هو، قبل كل شيء، دعوة إلى الإيمان، ولكنّه أيضًا دعوة دائمة إلى الاهتداء والتوبة والانضمام إلى مشيئة الربّ حبًا لله. بناءً على ذلك، تفرض علينا هذه الدعوة سلسلة شروط، انتقد بعضها إلى أقصى حدّ، إن لم تكن رُفضت كلّها في أيامنا : أفلا تُتهم الأخلاقية اليهودية المسيحية بأنّها أخلاقية ممنوعة، فادحة وجرمية ؟ مع أننا نعي أن المتطلبات الإنجيلية ليست مجموعة قواعد ممنوعة تبقى خارجية ومُشَلَّة، بل هي وصايا مطبوعة في أعماق كوننا أبناء الله، وهي تؤدّي إلى خيرنا، إلى ذلك الخير الذي هو مقياس حبّ الله لنا. أفلا يُعلن الربّ في العظة على الجبل: "طوبى لكم" ؟

إنّ معرفة كلمة الله والتعمّق فيها وعيشها، كل ذلك يجب علينا أن نعمله أفرادًا وجماعات وأزواجًا. وليس الإصغاء المنتظم إلى المسيح في الصلاة الزوجية أو في الصلاة الصامتة أو في قراءة كلمة الله

والتأمل فيها أو في المشاركة. أليس كل ذلك من الوسائل المميزة الموهوبة لنا لكي نُحيي فينا نعمة سرّ الزواج. هل نعي كل ذلك تمامًا ونعيشه بانتظام؟

وثائق

"يجعلون من الإنجيل شرعة الزوجين"

إنّ ما يُضفي على الإنجيل قيمة وأهميّة ليس كونه مجموعة أعمال يسوع المسيح وأقواله فحسب، بل كونه، بحسب ما كتبه القديس أوغستينس، " فَمَ يسوع المسيح". فالإنجيل هو صوت حيّ ودائم لكائن حيّ، للحيّ الكبير، الحاضر في أيّامنا وفيما بيننا، بحسب وعده: "سأكون معكم حتى نهاية العالم".

تلك الكلمة هي موجّهة إلى الكنيسة جمعاء وإلى كل واحد أيضًا. إنّني على حق في أن أفكر، عندما أفتح الإنجيل أنّ أحدًا يكلمني. هناك فَرْقٌ بين قراءة كتاب أو مقالة من جريدة موجّهة إلى جميع الناس وإلى لا أحد، وبين قراءة رسالة موجّهة إليّ شخصيًا. والحال أنّ الإنجيل هو تلك الرسالة الآتية من عند الله والموجّهة إليّ شخصيًا.

هناك أحدٌ يكلمني. يسوع المسيح يكلمني. وهذا أمر غير عاديّ. ولكن ما هي الكلمة المعنيّة هنا: هناك كلام الضابط الذي يأمر، وهو يهدف إلى الطاعة. وهناك كلام معلّم المدرسة، وهو يهدف إلى نقل العلم. وهناك أيضًا كلام الشاب الذي يبوح إلى فتاة بحبه قائلا: "أحبك". هذا القول هو أكثر من أمر وأكثر من تعليم، لأنه يُحدث انقلابًا، يُقرّر مستقبلًا.

عن طريق الإنجيل يتكلم يسوع المسيح، ومن خلال هذا الكلام ربّما يتعلّم المسيح ما يجب الإيمان به أو ما يجب عمله، إلا أنّ كلام يسوع في الإنجيل هو قبل كل شيء من النوع الأخير: إنّه بوحٌ يسرّ ويقلب رأسًا على عقب: "أحبك، حتى التضحية بحياتي من أجلك". ولكن، هناك ما هو أجمل وما هو سرّي: إنّ كلام المسيح في الإنجيل هو أكثر من تعليم أو أمر أو حتى اعترافٍ بالحبّ، إنّه فعلٌ لأنّه يصنع شيئًا. ذلك الصوت الذي أسمعُه حين أقرأ الإنجيل هو ذلك الصوت الذي كان يسكن العاصفة ويطهر البرص ويفتح العيون والأذان ويقمّ الأموات ويغفر الخطايا، ويلد أبناء الله (1 بط ٢٣/١-٢٥).

هل تفهمون الآن أنّ الإنجيل يذكر بالإفخارستيا؟ وأتّه يُسمّى "سرًّا كنسيًّا". كتب القديس أوغستينس: "إنّ يسوع المسيح، بفضل إنجيله، حاضرٌ بيننا حضورًا حقيقيًّا". ومن جهة أخرى، فإنّ يسوع المسيح نفسه يدعونا إلى التقريب بين الإنجيل والإفخارستيا. أصغوا إلى هاتين الجملتين المنتطابقتين: "من أكل جسدي وشرب دمي فله الحياة الأبدية" (يو ٥٤/٦)، و"من يحفظ كلامي لا يَز الموت أبدًا" (يو ٥١/٨).

رسالة إلى بولس ومريم

أنتما أيضًا تطلبان منّي كتابَ تأملات. ولكن، تَعَلّمَا أن تحلّا رموز الكتاب الذي أعطاكم الله إياه: زواجكما.

أوضِحُ فكرتي: حين كنت كاهنًا شابًا، كنت أحبّ أن أزور مشغل صديق رسّام. يوجد لدى الفنّانين الحقيقيين صفةٌ تبدو أنّها ميزتهم (لا أقول إنّها وقفت عليهم، لأننا نجدّها عند القديسين أيضًا). إنّها

شيء من الطراوة – ربّما كان عليّ أن أقول: البراءة – قريبة جدًا من روح الطفولة الروحية. وكان صديقي يمتلكها في درجة نادرة. فكأنّ العمر قد صَفَّى تلك الميزة النفسية الثمينة لديه وطهرها. ولذلك فإنّه حين كان يقوم بجولة مع زوّاره، ويشرح لهم لوحاته بإعجاب كبير، كما تفعل الأمّ الشابة أمام مولودها الجديد، لم يكن يشعر الزائر بأيّ إزعاج، إذ لم يكن هناك أثرٌ للإعجاب في النفس، بل مجرد حماسة...

كم من مرّة فكّرت في الله عند مغادرتي مشغل صديقي الرسّام: لقد خلق الله كل شيء، يومًا بعد يوم. وفي اليوم السادس، جاء خلقُ الإنسانِ تنويجًا لكل المخلوقات. ومع ذلك، كان المشروع الإلهي غير تامّ، إذ كان لا بدّ من إنشاء الزواج. عندئذٍ كوّن الله حواءَ وضمّمها إلى آدم. وكان اتحاد الرجل والمرأة إكمالاً للمشروع العظيم الرائع الذي ارتسم في أفق الأزمنة: اتّحاد ابنه والبشرية المخلّصة. فكيف لا يفضّل الله خليقته الأخيرة، أي الزواج؟

لا عجب إذًا أن لا ننتهي من إضافة اكتشاف إلى اكتشاف في حياة الزوجين. ولا عجب أن يلجأ المتصوّفون إلى الزواج - بعد الكتاب المقدّس- للتعبير عن كنوز الحب التي يحفظها لنا الاتحاد بالمسيح. فيا عزيزي بولس ومريم، إنّ ما تعيشانه هو فيضٌ من المعاني. فليس زواجكما حقيقةً بشريةً فحسب، بل هو مليء بالمعنى الفائق الطبيعية. فهناك أحدٌ يكشف لكما، من خلال زواجكما، قلبه ورغبته في أن يعقد مع كل واحد منكما روابط حبّ أعمق من روابط الزواج.

الشريعة الجديدة

إنّ المسيح يطلب منّا أكثر بكثير من احترام شريعة خارجية، إنّهُ يطلب تجديدًا " لقلبنا " أي لعمق كياننا. فهو لا يأتي ليضيف شريعة جديدة إلى شرائع أخرى، بل ليطلب شيئاً هو أبعد من كل شريعة، أي تغييراً جذرياً في عمق أعماقنا. هذا التغيير الجذري العميق يتطلّب عيش الإنجيل أكثر من الخضوع لشريعة. فالرجوع إلى الإنجيل، الذي يكثر الكلام حوله في أيّامنا، ليس طريق سهولة. فالمسيح لم يأت ليُلغى الشريعة ويُسلّمنا إلى نزواتنا، بل أتى ليُكَمِّل الشريعة ويدفع إلى الأمام الطريق المزروع بوصايا العهد القديم.

يعطي الفصل الخامس من إنجيل متى، ابتداءً من الآية ٢٠، أمثالاً عن ذلك المقتضى الحاسم. فيسوع لا يستشهد بجميع الوصايا، بل يختار بعضها ليُظهر حتى أيّة نتائج يجب أن تصل حياة المسيحي الجديدة.

لا يستطيع المسيحيّ أبدًا أن يقول إنّهُ عمَل الكفاية، وهو معفيّ بعد اليوم لأنّه تقيد بإحدى الوصايا. على سبيل المثال، لا يكفي تجنّب القتل: " لم أقتل، لم أسرق... "، لا يكفي تجنّب الشتم، ولا الغضب. إنّما يجب أخذ المبادرة: " أترك هناك تَفْدمتَكَ، واذهب أولاً وصالح أخاك... ". وبكلمات أخرى، يجب أن يكون في "القلب" من السلام والغفران ما يمنع الإنسان من أن يكون مرتاح الضمير. كان القديس بطرس يظنّ أنّه يرجح الميزان بالغفران حتى سبع مرّات.

لا يعني العيش بحسب الإنجيل التقيد بوصية من الوصايا. ولا يستطيع الإنسان أن "يقوم بواجبه بصفته مسيحيًا " وأن يقول بعد ذلك: أنا مرتاح لفترة من الزمن، سأعيش قليلاً ... ذلك لأنّ المسيحيّ يبقى مسيحيًا طوال حياته وفي كل لحظة من حياته.

ولكن، أليس مثل هذه الحياة فوق قدرة البشر؟ إنّ الشريعة الجديدة التي تكلم عليها يسوع تُستَهَلّ بالتطويبات: أي "بطريق السعادة". ففي فكر يسوع، لا تتعارض المتطلبات الجديدة مع الفرح، حتى

في هذه الأرض. فإن كان لنا روح آخر وقلب جديد، نستطيع أن نعيش متطلبات المسيح في السكينة والسلام. فالله وحده بوسعه أن يعطينا روحاً آخر وقلباً آخر.

يجب أن نتذكر هنا أن شيئاً ما سبق تلك المتطلبات، وهو : إعلان البشرى، أي يسوع نفسه، علماً بأن إخوتنا والذين سبقونا يواصلون إعلان هذه البشرى ويُشركوننا في قلب المسيح الجديد وروحه الجديد.

دروب تفكير

- الإصغاء إلى المسيح في حياتنا الشخصية :

- هل عشنا في حياتنا الشخصية أوقاتاً قويّة أظهر الله فيها نفسه بوجه مميّز ؟
- هل نشعر اليوم بحاجة حيويّة إلى وضع أنفسنا بانتظام في حالة إصغاء للمسيح ؟ أم نقوم بذلك بشكل روتيني ؟ كمّن يقوم بواجب ؟ بعدم انتظام ؟
- هل اختبرنا الإصغاء إلى المسيح بشكل شبه منتظم وهل أدّى ذلك إلى تغيير تدريجيّ في حياتنا ؟ في أي شيء ؟
- ماذا تمثّل لنا في أيّامنا هذه المقننات الأخلاقيّة ؟

- الإصغاء إلى المسيح في حياة الزوجين :

- هل نهتمّ في أن نضع أنفسنا معاً في الإصغاء إلى المسيح ؟ كيف نقوم بذلك ؟ أيّ فائدة نجنّها من ذلك ؟
- هل أصبح الإنجيل يوماً بعد يوم شرعنا كزوجين ؟ في أيّ شيء ؟
- هل نتقاسم كزوجين، بانتظام، الروائع التي يظهرها الله لكلّ منّا في الصلاة الزوجيّة والصلاة القلبيّة وقراءة كلمة الله ؟

نقاط الجهد الملموسة

تعرض علينا حركة فرق السيّدة سلسلة نقاط لتساعدنا على التقدّم في الإصغاء إلى المسيح، ندعوكم إلى التوقّف، في الأشهر الآتية بوجه خاص، عند نقطتين : الإصغاء إلى كلمة الله والصلاة القلبيّة (أو المناجاة).

قراءة كلمة الله

- هل نقرأ بانتظام كلمة الله : فردياً ؟ بين الزوجين ؟
- أيّ شكل تتخذه هذه القراءة ؟ هل تطوّرت ؟
- إنّ قراءة كلمة الله شيء، والتغذّي منها شيء آخر، هل نتغذّي من كلمة الله؟
- هل نتقاسم بانتظام ثمار هذه القراءة ؟
- أيّ مساعدة نتمنّى الحصول عليها من قبل الزوج ؟ ومن قبل الفرقة ؟

صلاة القلب أو المناجاة

- هل ساعدنا التفكير في الصلاة القلبية على تحسين نوعيّة هذه الصلاة ؟ أين أصبحنا ؟
- هل نهتمّ بين الزوجين، بتقاسم الأفرّاح والصعوبات التي نختبرها في ممارستنا لهذه الصلاة ؟ هل نتعاون على عيشها بوجه أفضل ؟
- هل ساعدتنا الفرقة في هذا المجال ؟ هل نستطيع أن نساعدنا بقدر أكبر ؟

الفصل السادس

أحرار في المسيح

حرية، تحرير ... كلمات دارجة في أيامنا، ولكنها كثيرًا ما تُستعمل بالمقلوب. أي معنى نضفي عليها؟ إلى أي حرية يدعونا المسيح؟ كيف نسير نحو هذه الحرية؟ تلك هي الأسئلة الكبرى التي نعرضها عليكم للشهرين الآتيين.

قبل كل شيء، ما هي الحرية، بمعنى الكلمة المسيحي؟ إن الحرية - التي لا تُستعمل في العهد الجديد بمعنى الحرية المدنية - لا تحدُّ بالاستقلال ولا بالسيطرة على النفس، بل بكوننا أبناء الله. وهذه الحرية الروحية اكتسبها المسيح ويمنحها الروح القدس.

وثائق

طريق نحو الحرية للخاطنين

يرفض الإنسان في أيامنا أن يُحكّم، لا بل أن يحكّم في نفسه. فكيف يستطيع إنسان آخر أن يحكم في؟ هناك عدد لا يُحصى من الظروف كان لها دور في حياتي. ففي كل من عمالي، أشعر بثقل ماضي. ومن جهة أخرى، ما هي مسؤوليتي في أعمال الظلم الاجتماعية في الاقتصاد الدولي؟ لا نستطيع أن نقلل من قيمة اكتساب العلوم، فإنها تمكّن من تحديد مسؤولية الإنسان وذنبه.

في هذه الأحوال، ماذا يصبح دور التقليد المسيحي في الخطيئة والتوبة؟ يوجّه بعض المسيحيين نقدًا شديدًا إلى مفهوم الأخلاق التقليدي وممارسة سرّ الاعتراف. وهناك من يتخلّون تدريجيًا عن هذا السرّ. فيبدو إذًا ملجأ، في هذه النقطة وفي غيرها، أن نعود إلى تفسير التقليد المسيحي، وأن لا نظنّ أنّ المسيحي سيكون أكثر سعادة حين تصبح حريته مستقلة.

إنّ حريتنا تحتاج إلى أن تُغمر، لا بالأشياء والخيرات المادية، بل بوجه حرية أخرى. وفي النهاية بوجه الله الذي تجلّى في يسوع المسيح. تقول لنا الرسالة المسيحية إنّ قلب الإنسان قد يرفض الانفتاح، في الصلاة والشكر، على الإله الذي يكشف لنا حبه. هذا الرفض هو الخطيئة.

ترويض النفس في خدمة الحب

إن كنتم تعرفان أن تحبًا، فأنتم تعرفان ما هو ترويض النفس. فالذين يعيشون الحب يمارسون حتمًا ترويض النفس. إنّ ترويض النفس ليس مجرد مُقتضى كيفي يدعو إليه واعظٌ كئيب، بل هو مقتضى أساسي للحب. وكما أنّه لا يكون وسامًا أو قطعة نقود بلا قفا ووجه، فإن الحب وترويض النفس هما وجهها الحقيقية نفسها.

لن أتقدّم أبدًا في حبّ الآخر إن لم أعمل على إماتة حبي لنفسي ما دام حبًا أنانيًا ومتطلبًا. ذلك بأنّي لا أستطيع أن أعطي وأخذ في وقت واحد، أن أكون في موقف مؤسس على عطاء النفس وأن أخضع لشهوتي، أن أكون في حالة قربان وفي حالة تحايل، أن أكون ملتزمًا وأن أكون لامباليًا، أن يكون قطبي في ذاتي وفي الآخر.

الحق يُقال بأنَّ الحبَّ والأنايَّة يسكنان معاً في قلبي. لكنَّ هذا التعايش ليس سليماً. فهما لا يتَّفقان، بل يتعارضان. إنَّهما، بصراحة، في تنازع دائم. ما لم يوقَّعا، بتواطؤٍ معي، بروتوكول اتِّفاق ليتقاسما قلبي وحياتي. وهذا الاتِّفاق هو صفةُ مغبوتين طبعاً، إذ إنَّ كل واحد سيحاول بالحيلة أن يُبيد الآخر. إنَّ الحبَّ والأنايَّة يطمحان كل واحد إلى السيطرة.

انتبها ! في قراءتكما ما كتبتة، لا تنطلقا كالسهم في أبحاث تجريدية. عودا بالأحرى إلى نفسيكما، كما أفعله أنا في كتابتي إليكما ... انظرا وراقبا حركات قلوبكما، انصرفا، ولو في يوم واحد، إلى امتحانٍ بلا رحمة، لا أقول فحص ضمير، بما أن هذه الكلمة تُثير الغضب، بل فحص " قلب ". وعند المساء ستدرسان مخطَّط القلب الكهربائي.

أنتما تحبان الواحد الآخر وتتمنيان دائماً أن تحبَّا بوجه أفضل. (لأنَّه لا مزيدَ من الحبِّ في القلب الذي يقول: "يكفي ذلك" والذي لا يتمنى أن يحبَّ دائماً حباً أقوى وأفضل). والحال أنكما ولا شكَّ تلاحظان فيكما كثيراً من الأشياء التي تكبح وتعرقل وتخفِّف من اندفاع حبكما. في المحادثة، مثلاً، تلك الحاجة إلى عدم الاستسلام، وإلى أن يكون الواحد دائماً على حق. كما أنَّه من المفيد أن تطرحا بعض الأسئلة حول علاقتهما بأولادكما.

ترى هل نَجَحْتُ في إثبات أنَّ كلَّ حبٍّ يشتمل في ذاته على ضرورة ترويض النفس لكونه اهتماماً وجهداً شجاعاً أميناً ذكياً منهجياً وثابتاً للتغلب على الأنايَّة التي تقف عقبة دون الحبِّ ولكي نزرع فينا كل ما يساعدنا على الوصول إلى حبِّ أكبر ؟ وإذا كان الحبُّ البشري يقتضي ترويض النفس، فكم بالأحرى حبُّ الله؟

تلميذ يسوع والمال

اختيار جذري (متى ٦ / ١٩ - ٢٤)

من بين جميع الأشياء التي يستطيع الإنسان أن يتمسك بها والتي يمكن أن تصبح مثله الأعلى وكنزه، والتي يستطيع أن يختارها بصفتها أسياداً تستحق الخدمة، هناك شيء مشوق بوجه خاص، وهو المال والثروات. وإذا كان متي الرسول قد أعطى منزلة هامة لهذا الموضوع في إنجيله، فلأنَّ المسيحيين في زمنه كانوا يعرفون جيِّداً هذه التجربة. أولم تزل تجربتنا اليوم ؟

نحن نعيش في مجتمع تسود فيه عبادة المال والغنى. ويؤيِّد علماء الاجتماع ما نختبره كل يوم، وهو أنَّ القيمة السائدة في مجتمعنا هي القيمة "الاقتصادية". إنَّ المطالبات تدور حول ذلك بوجه خاص. ففي الحملات الانتخابية، يضع المرشَّحون في النقطة المركزية من برامجهم زيادة مستوى المعيشة. مثلاً، إن ركَزَ أحدُ في برنامجه على ضرورة العدالة في العالم الثالث، يكون الفشل مكتوباً له. فحتى الزعماء النقابيون أو السياسيون، الذين قد يرغبون في غير تحسين مستوى المعيشة، ينتهي بهم الأمر إلى الخضوع لتلك العقلية، لأنهم يشعرون بأنهم لن ينجحوا في استنفار جمهورهم حول قيمة أخرى. يمكنهم أن يُنجزوا أهدافاً أخرى، ولكن بشرط أن لا يمسوا بالربح ... إنَّ الإعلانات والجرائد ومجلات الشباب المصوَّرة التي تحاول أن تخضع لرغبات الجمهور، تعكس صورة الإنسان الذي يضع سعادته في وفرة المال والخيرات المادية.

نسارع إلى القول: لعلَّ الأشياء قد أخذت تتغيَّر قليلاً مع تزايد الأصوات التي تذكر بأنَّ هناك قيماً أخرى غير القيم الاقتصادية وبأنَّ القيم المادية تترك الإنسان فارغاً ... لكننا نعترف بأننا لا نزال نسبح عموماً في تلك الأجواء.

يطلب إلينا المسيح بحزم أن لا نترك الشَّبَاكَ تخطفنا، ويطلب إلينا أيضاً أن ننسحب من ذلك الشغف بالغنى والتملُّك. فعلياً أن نختار: "لا تستطيعون أن تعملوا لله وللمال". اعلموا أنّ الانشغال بالمال يُخشى أن يصبح قيمة سائدة. فيجب علينا إذاً أن نبتعد عن العقليّة السائدة. وذلك لكي نتمسك بالله وبشريعته القائمة على الحبّ.

" لا يهتمكم ... " (متى ٢٥/٦-٣٤)

ينتج عن مثل هذا الاختيار الأساسيّ موقفٌ متحرّرٌ من الانشغالات الماديّة. موقفٌ تصبح معه الخيرات الماديّة نسبيّةً إلى حدٍ بعيد، فالمسيحيّ لا يضع ثقته فيها، بل بالله. إنّها "زيادة"، وهي لم تعد الهدف الأول ...

إنّ المقطع في الإنجيل الذي يتحدّث عن طيور السماء وزنابق الحقل قد يبدو خيالياً للملتزم في الصراع من أجل الحياة. ومع ذلك، إليكم بعض الملاحظات :

إن كُنّا نجد ذلك المقطع شاعرياً رعوياً، أفليس لأننا مشوّشون بالاهتمامات الماديّة، أو لأننا ابتكرنا حاجات كثيرة تبدو لنا وكأنّها لا غنى عنها؟ هذا ما يريد المسيح أن يذكرنا به: أن نضع الأشياء في محلّها، علماً بأنّ الأولويّة يجب أن تكون في كافة الأحوال للملكوت ولشريعة الحبّ الإلهيّة.

لا يدعونا المسيح إلى البطالة والكسل. فهو لا يقول أبداً: " لا تعملوا"، بل يقول ويكرّر: " لا تهتمّوا". فالملطوب منّا هو أن نحفظ بحريّتنا الروحيّة وثقتنا بالله. لا ينسى المسيح أنّنا نحتاج إلى وسائل عيش: "إنّ أباكم السماويّ يعلم أنّكم تحتاجون إلى هذا كلّهُ". (متى ٦ / ٣٢).

إنّ مثل طيور السماء وزنابق الحقل لا يُعطى لنا لكي نفقدي به، بل لكي يذكرنا بالعبادة الإلهيّة. يمكننا أن نترجم: " إن كان الله يؤمّن حياة الطيور والأزهار التي لا تحصد ولا تغزل، فكم بالأحرى يعطينا ما نأكله وما نلبسه، نحن الذين نغزل ونحصد".

خطر الأموال (متى ١٦/١٩-٢٦)

لا يجوز الظنّ أنّ ما يطلبه المسيح يقتصر على نوع من التجرّد الغامض، وأنّ الإنسان يستطيع أن يكون متجرّداً في عمق قلبه، وأن يكون، في الوقت نفسه، غنيّاً. إنّ ما ورد في الإنجيل عن الشاب الغنيّ هو ناطقٌ بليغ: فلا يدور الكلام هنا على دعوةٍ خاصّة، بل على شخصٍ يريد أن يكون تلميذ المسيح، فيطلب إليه يسوع أن يبيع ما عنده ويوزّعه على الفقراء. كثيراً ما رأى المفسّرون في هذا النصّ دعوةً إلى الحياة الرهبانيّة أو إلى الخدمة الكهنوتيّة. كما لو كُنّا أمام إنسان يريد، من جهة أن يصل إلى الحياة الأبديّة (دعوة عامّة)، ومن جهة أخرى أن يحفظ الوصايا ويكون كاملاً (دعوة خاصّة)، فيطلب منه أكثر من ذلك، أي أن يتخلّص من خيراتهِ.

والحال أنّ قول يسوع: " إن أردت أن تكون كاملاً ... "، ليس نصيحة خاصة لبعض الناس، بل دعوة مشتركة لجميع تلاميذ يسوع، كما ورد في متى ٤٨/٥، وكما ذكّر به المجمع الفاتيكاني الثاني (" تكونون كاملين ... "). وحين يجيب يسوع على السؤال الثاني الذي طرحه الشاب، فإنه يوضح فقط المقترضات الملموسة لمن يريد أن يحفظ حقاً شريعة الله.

إنّ التجرّد الحقيقيّ من المال والغنى مطلوبٌ من جميع المسيحيّين. إلى أيّ حدٍ يجب أن يصل هذا التجرّد الملموس؟ ربّما يتوقّف ذلك على كل واحد: فقد يتخذ هذا التجرّد صيغاً ملموسة متعدّدة. ولكن يجب أن يكون تجرّداً فعليّاً بما يكفي لكي نكون أحراراً بأن نبتع المسيح وشريعة الحبّ ... لقد طُلب

من الشاب الغني أن يبيع جميع خيراته. ويُظهرُ ردُّ فعله أنه دُعِيَ إلى ذلك لكي يكون حُرًّا في باطنه وأن يتَّبِعَ المسيح فعليًّا. في هذا المعنى، فإن دعوة الشاب هي دعوة خاصة، لكنَّ تجرِّدًا حقيقيًّا مطلوبٌ من كلِّ واحد.

إنَّ الآيات ٢٣ حتى ٢٦ من الفصل ١٩ من إنجيل متى تلخَّ على خطر الغنى: فليس سواءً أن يكون الإنسان غنيًّا أم لا للدخول إلى طريق الخلاص. من كانت عنده خيرات كثيرة يصعب عليه فعلاً أن يتخلَّص منها تخلُّصًا داخليًّا ليضع ثقته وقلبه في مكان آخر. لأنَّه يصعب على الذي عنده قدرة المال أن لا يؤسِّس وجوده على هذه القدرة وأن يتَّخذ طريق الملوك الذي هو طريق الحبِّ مع كل ما يستلزمه من انفتاح على الآخرين وإصغاء واستقبال وفقر باطني. هذا هو رأي المسيح الواقعي: "يصعب جدًّا على الغني أن يدخل إلى ملكوت السماوات"، مع أنَّ قوة كلمة حبِّ الله هي قادرة على أن تغيِّر قلبًا يُعلِّقه الغنى: "أما الناس فهذا شيء يعجزهم، وأما الله فإنه على كل شيء قدير" (متى ٢٦/١٩).

بعض الأدلَّة الملموسة

أخيرًا، إنَّ القاعدة الكبرى في استخدام المال هي شريعة الحبِّ، تلك القاعدة الذهبية. فاختيار الإله الذي أظهر نفسه في يسوع المسيح بصفته الخير الأعلى هو العيش الفعلي في حبِّ القريب. إنَّ عبادة المال هي عبادة الأنانية، لا عبادة الله المحبة. وعلى عكس ذلك، فإنَّ استخدام المال لخدمة القريب هو خدمة إله يسوع المسيح. أمَّا التجرُّد من المال، فليس هو احتقاره، بل التحرُّر من سلطانه واستعماله لمنفعة القريب. فلا يدور الكلام إذاً على الانسحاب إلى البرية والكفِّ عن العمل واحتقار الخيرات المادية. لكن المطلوب بالأحرى هو أن توضع تلك الخيرات في خدمة الآخرين.

هكذا يجب أن يتمَّ التجرُّد الفعلي. أمَّا السعي لاستثمار جميع الإمكانيات، وإنتاج موارد أكبر كمية، فهو أمر مشروع، شرط أن لا يكون هدفه التمتع الأناني، بل يجب أن يكون خدمة الآخرين. فالغني الذي لا يُقاسم، بشكلٍ من الأشكال، لا يكون مسيحيًّا.

إنَّ العمل لإعالة العائلة وتربية الأولاد هو طريقة لوضع المال في خدمة الآخرين والخروج من الأنانية ... ولكن، يجب في تربية الأولاد، أن لا يقدِّم المال أو الثروة أو مستوى العيش وكأَنَّها القيمة الأعلى. إنَّ حبَّ الأولاد الحقيقي هو إطلاعهم على الخيرات الحقيقية وتربيتهم على حبِّ الآخرين وخدمة الله. أوليس في أيامنا خطرٌ بأن يُربى الأولاد على عيش سهل يُخشى أن يجعلهم أكثر أنانيةً؟

ومن جهة أخرى، لا يجوز أن تقتصر محبة القريب على محبة العائلة، لأنَّ التقاسم والمشاركة يجب أن يذهبا إلى أبعد. فالقريب الذي يجب أن نحبه هو كل إنسان، كما أن إرادة التقاسم والمشاركة يجب أن تمتدَّ إلى جميع الناس.

دروب تفكير

- هل نحن، اليوم، مرتبطون "بالعالم"، لا بل سجناء "العالم"؟ أم أننا أحرار بالنسبة إلى العالم؟ فرديًّا؟ كزوجين؟ كيف تطوَّرت مسيرتنا في هذا المجال منذ زواجنا؟

- ما الذي يقف اليوم عقبةً في وجه هذه الحرية؟ بالنسبة إلى كلِّ منّا؟ وإلينا كزوجين؟
- كيف نوفّق بين الحرية والحياة الزوجية؟ هل نحن حُرّين الواحد من الآخر؟ هل يساعد كل واحد منّا الآخر على أن يحقّق ذاته، أن يكون هو تمامًا؟
- هل عندنا، كأفراد وكزوجين، رغبةً عميقة في التخلّص من خطيئتنا؟ هل نتعاون على ذلك؟ أيّ مكان يحتلّه الغفران في حياتنا الزوجية؟
- هل الأجواء بين الزوجين هي أجواء حريّة إنجيليّة؟ ما هو أسلوب عيشنا؟
- ما هي منزلة ترويض النفس في حياة كلِّ منّا؟ وفي حياتنا كزوجين؟

نقاط الجهد الملموسة

لكي تساعدنا فرق السيّدة على التقدّم في طريق الحرية المسيحية، فإنّها تدعونا بوجه خاص إلى "التقدّم في معرفة ترويض النفس المسيحي"، وهي تعرض علينا نقطة ملموسة، هي "قاعدة الحياة" التي تكلمنا عليها في الاجتماع الرابع.

ترويض النفس

- هل فهمنا كما يجب ما هو ترويض النفس المسيحيّ؟
- أي أهمية أعطيناها حتى الآن في حياتنا الشخصية؟ في حياة الزوجين؟
- ما هي مجالات حياتنا الشخصية وحياتنا الزوجية العائلية التي لا بدّ منها في أيامنا؟
- أيّ مساعدة نرغب في الحصول عليها لفهم ترويض النفس ونمارسه على وجه أفضل؟ من قبل الزوج؟ من قبل الفرقة؟

قاعدة الحياة

- كيف كانت قواعد حياتنا في الماضي؟ هل ساعدتنا على العيش بوجه أفضل في المسيح؟
- كيف نختار الآن قواعد حياتنا؟ هل نختارها فرديًا؟ بين الزوجين؟ بمساعدة كاهن؟ بحسب أيّ مقاييس؟
- هل نجد رابطًا بين ترويض النفس وقاعدة الحياة؟ ما هو؟
- أيّ مساعدة نرغب في الحصول عليها من الزوج؟ من الفرقة؟

الفصل السابع

أموات وقائمون من الموت مع المسيح

" تعال واتبعني": هذه الدعوة يوجّهها المسيح إلى كل شخص وإلى كل زوجين، داعياً إيانا إلى مزيد من الانفتاح لحبه لكي نوّدي شهادة حيث نحن موجودون. نعرف معرفة جيدة هذه الجملة الأولى من وثيقة "ما هي فرقة السيّدة؟". فإننا جئنا إلى الحركة تلبية لدعوة المسيح. وبمساعدة فرقنا اكتشفنا تدريجياً أنه، لكي نلتزم حقاً في خطى المسيح، يجب علينا، في آن واحد، أن نصغي إلى كلمته ونفتح لروحه ونقبل الذهاب معه حتى نهاية الحبّ ونموت ونقوم من الموت معه. ولكن هل نعي اليوم ما يعني لنا أن نموت ونقوم مع المسيح؟

إنّ عدداً كبيراً من المسيحيين قبلوا لكي يشهدوا لإيمانهم – ويقبلون اليوم أيضاً – أن يضحو بحياتهم حتى الشهادة، مقيمين الدليل الأخير الحاسم على حبهم. من الأرجح أنّه لن يُطلب منا ذلك. وإذا، فكيف نموت ونقوم من الموت مع المسيح؟ إن القديس بولس يشرح لنا ذلك قائلاً أنّه يجب علينا أن نموت عن الخطيئة (روم ٦/١)، وعن الإنسان القديم (روم ٦/٦)، وعن اللحم والدم (١ طيم ٤/٣)، وعن الجسد (روم ٦/٦ - ١٠/٨)، وعن الشريعة (غل ١٩/٢) وعن أركان العالم (قول ٢٠/٢) ... لنصبح أحياء "على أنّكم أحياء قاموا من بين الأموات" (روم ١٣/٦)، وذلك كلّ يومٍ من أيام حياتنا. فلنسال أنفسنا في نور تعليمه: أين أصبحنا، أين أصبح زواجنا في هذا المجال؟

إنّ التجدد الليتورجيّ، منذ المجمع الأخير، بعد أن استعاد التركيز في الاحتفال الليتورجي على موت المسيح وقيامته، ساعدنا، ولا شك، على أن ندرك ما يتضمّنه ذلك لحياتنا المسيحيّة. أفلم يذهب بنا بوجه خاص إلى اكتشاف أنّنا، بفضل معموديتنا وسرّ الإفخارستيا والحياة الأسراريّة كلّها، نشارك مباشرة في ذلك الموت وتلك القيامة؟ كما أنّ قراءتنا وتبادل وجهات النظر بين الزوجين وفي الفرقة قد ساعدتنا ولا شك على التقدّم في فهم ما يشكّل أساس إيماننا: "إذا لم يكن المسيح قد قام، فإيمانكم باطل" (١ قور ١٥/١٧).

ولكن، هل عشنا على وجه أفضل سرّ الموت والقيامة؟ للإجابة عن هذا السؤال، فلنحاول أن نلقي نظرة إلى ما كانت حياتنا كزوجين منذ عشرة أو عشرين سنة. لقد التزمنا في الزواج وكلنا حماسة ومثّل علينا، ووجدنا فيه كثيراً من الأفراح العميقة. ولكن، إلى جانب ذلك، ما أكثر الأحلام التي حملناها معاً والطموحات الفتيّة التي حملناها على مرّ السنين، والتي لم تعرف الاكتمال المرجوّ؟

في حياتنا الشخصية: عرف بعضنا الحادث أو المرض الذي رهن صحتهم، ووعى بعضنا الآخر حدودهم في ما اختبروه من ألم أو فشل على المستوى الفكري أو المهني ... وعرف البعض الآخر المحنة في مجال الإيمان، فاختبروا الشكّ إنّ لم يكن الليل الدامس، خلال مدة من الزمن طويلة أو قصيرة. وأخيراً شعرنا جميعاً، مع القديس بولس، بأننا أسرى خطيئتنا، "فالذي أريده لا أفعله، وأمّا الذي أكرهه فإياه أفعل" (روم ٧/١٥).

في حياتنا الزوجيّة: وعينا مع الزمن أنّ علاقتنا الزوجيّة لا تتطابق - وقد لا تتطابق أبداً - مع الصورة المثاليّة التي رسمناها عنها في البدء. فلقد اختبرنا الخلافات والاصطدامات وحتى بعض الأزمات الخطيرة التي لم تلتئم حتى الآن جميع جروحها. كان ينبغي أن نموت في كل واحد منا الأنانيّة والرغبة في السيطرة والتّمكّك من أجل أن نشقّ طريقاً لحبّ قادر على المغفرة والتغلب على خيبات الأمل، ومن أجل أن يقبل الواحد منا الآخر بحسناته ونقائصه ومحدوديّته، والحبّ كلّ رجاء.

في حياتنا العائلية: ربّما واجه بعضنا محنة الحرمان من الأولاد، وبعضنا إعاقة لدى أحد الأولاد، وبعضنا فقدان أحد الأولاد. وفي الوقت نفسه ربّما تألم الكثيرون منّا، على الأرجح، من رؤية بعض أولادهم المراهقين يسيرون في طرق يرفضونها لأسباب مختلفة.

كيف كانت ردود فعلنا على تلك الصعوبات والمحن التي قد تطول لائقها. هل استسلمنا للشك، لخيبة الأمل، للتمرد؟ أم هل قبلناها في الإيمان كمشاركة في موت المسيح وقيامته؟ أو كفرصة مميزة للموت عن أنفسنا للانفتاح على حب الله وحب إخوتنا بدءًا بشريك حياتنا؟

وثائق

أومن بيسوع المسيح الذي مات وقام : السرّ الفصحى

موت يسوع

تعودنا على صلب يسوع وموته حتى لم يعد ذلك يؤثّر فينا. ومع ذلك، نجد في الرسالة المسيحية شيئاً غريباً. إنّ التلاميذ الأولين، والكنيسة على مرّ القرون، علّقوا على موت يسوع أهمية أكبر من أهمية حياته. فواضعو الأناجيل يعتبرون موت يسوع بأنه قمة رسالته وتامها، مع أنّ المسيح عمل وقال كثيراً من الأشياء الخارقة. وبدا أن الموت لم يكن إلا فشلاً، أو على الأقل، نهاية نشاط كبير. لماذا هذا التشديد على الموت؟ إنّ القديس بولس لا يتكلّم إلا قليلاً على حياة يسوع على الأرض، بل كل شيء يختصر في إعلان موته وقيامته.

إنّ الموت ظاهرة أحيائية تُثبت علمياً. لكنّه أيضاً مأساة شخصية. يتساءل أمّها البشر منذ أن وُجدوا، لأنّ الشروح العلمية لا ترضيهم. حين يموت إنسان، يحدث شيء لا يُرى، على المستوى الشخصي. ليس عندنا طبعاً اختبار الموت، ولكننا نشارك في اختبار موت الآخرين ونلمح موتنا. على هذا الصعيد، قد يُفسّر الموت بطرق مختلفة: كنهاية كل شيء أي كفشل نهائي نحاول أن نقبله بأشدّ هدوء ممكن، كعقاب على الخطايا، ولكن أيضاً كتضحية من أجل أحد الناس. ذلك لأننا نستشف، حتى على الصعيد البشري، معنى إيجابياً للموت. على سبيل المثال: حين يقبل أحد أن يموت في سبيل شخص آخر، لا يظهر هذا الموت فشلاً أو عقاباً يُستسلم له سلبياً، بل كمسعى حرّ يمثل أكبر عمل يستطيع الإنسان أن يعمل. يذهب ذلك الإنسان ظاهرياً إلى الفشل. ولكننا ندرك أنّه، بتضحية وجوده في هذا العالم، يبلغ قمةً، ويجد اكتماله.

سبق القول إنّ الإنسان، في الحب، يقبل بأن يفتح قلبه ويستسلم لإنسان آخر. وأكبر أفعال حريتنا ليس أن نُثبت سلطتنا على الآخرين، بل أن نخرج من أنفسنا وأن ننكرها، إن صحّ القول، وأن نسلم أنفسنا لحرية الآخر. إنّ تضحية الإنسان بحياته هي الذهاب إلى آخر حدّ من ذلك الموقف الذي هو عدم وضع ثقته في نفسه، بل في الآخر، والمراهنة على الآخر أكثر من المراهنة على النفس. إنّ مثل ذلك الموت هو التعبير المطلق عن الحب، وهو هبة النفس لإنسان آخر. فيشعر الإنسان أنّه بدل أن يجعل الحياة غير مفيدة وغير معقولة، يضيف عليها كل معناها.

في تلك الإضاءة يقدّم لنا العهد الجديد موت يسوع. إذا صحّ أنّ حياته كلّها كانت شهادة حبّ، فإنّ موته يمثل قمة هذه الشهادة: "ليس لأحد حبّ أعظم من أن يبذل نفسه في سبيل أحبائه" (يو ١٥/١٣). "كان قد أحبّ خاصته الذين في العالم، فبلغ به الحبّ لهم إلى أقصى حدوده" (يو ١٣/١). "أحبّني وجاد بنفسه من أجلي". إنّ ما أضفى قيمة على موت يسوع ليس الألام في حدّ ذاتها أو الموت، بل استعدادات الحبّ التي كانت لديه والتي قادته حتى الصليب.

كان بإمكان يسوع أن يختار ممارسة قدرته، كان يستطيع أن يُحرز انتصارات، لكنّه لم يُرد تلك العظمة، ولم يضع ثقته وسنده في نفسه، بل أسلم نفسه من أجل الآخرين. ومنذ ذلك الحين، يرتّم المسيحيون لتضحيتته ويحتفلون بالصليب.

قيامه يسوع من بين الأموات

منذ البدء، حلم الناس بحياة لا نهاية لها، وبدء يجنّبهم زوال الوجود، وبينبوع حياة للأبد. إنّ كتب الأدب تروي قصصاً عن رجل ذهب للبحث عن شجرة عجيبة تعطي الخلود.

إنّ الطريقة لعدم الزوال للأبد هي إنجاب الأولاد. فبفضل الأبوة والأمومة، يعيش الناس عبر أولادهم. لذلك كان عدم الإنجاب "عند الشعوب البدائية" أكبر لعنة، وكان النسل البركة الكبرى. كما كان البحث عن المجد الذي يترك أثراً في التاريخ.

لقد عاش تلاميذ يسوع هذه المأساة، لأنّ المعلم الذي تمسّكوا به، بالرغم من عظمة تضحيتته، قد غادرهم. ولكنهم قاموا باختبار مؤثّر: "لقد قام من بين الأموات". وهو حيّ للأبد! لم يترك الربّ لهم رسالة أو ذكرى فقط. بل إنّه حيّ. هذه البشرى ستكون قلب إعلانهم وأساس كرازتهم. فيسوع الذي وضعوا فيه إيمانهم وحبّهم تغلّب على محنة الموت. وفيه، أصبح "الحبّ القويّ كالموت" حقيقة. نحن أمام ينبوع حياة ونقطة سندٍ لكل شيء، حتى للموت نفسه. في تلك الساعة، فهمّ التلاميذ حقاً أنّ يسوع هو هذا الأساس المطلق الذي يبحث عنه الناس. إنّه الله نفسه، فالذي يضع فيه إيمانه لن يخزي.

إدّاء، لقد ظهر الله في صورة إنسان وعاش طوال حياته في سبيل الآخرين وارتضى أن يموت في سبيلهم وقام من بين الأموات، لقد تغلّب على المحنة التي أخفق فيها سائر الناس.

نحن أمام حُبّ له وجه بشريّ يمكننا أن نعرفه، وقد أظهر نفسه أنّه لا يزول. فنستطيع إدّاء أن نثق به ثقة مطلقة.

لا يقدر أيّ إنسان آخر أن يكون لي أساساً متيناً، لأنّه نفسه قابلٌ للموت. إنّ الحب الذي كنّه المسيح للبشر، في حياته بيننا، ظهر حُبّاً لا يتزعزع. إنّه حُبّ الله نفسه الذي أصبح ملموساً سهل الفهم في مستوى اختبارنا البشري: "وإنّي أثق بأنّه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا أصحاب رئاسة، ولا حاضر ولا مستقبل، ولا قوّات، ولا علوّ ولا عمق، ولا خليفة أخرى، بوسعها أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربّنا" (روم ٨/٣٨-٣٩).

إنّ يسوع هو ينبوع الحياة الذي يبحث عنه الناس منذ بدء الخليقة والذي لم يكن عندهم عنه إلاّ شعور مسبق. إنّه ذلك الذي يبحثون عنه عبر جميع لقاءاتهم، مع العلم بأنّ كل حُبّ أصيل هو انعكاس لذلك الحبّ الذي ظهر في الملاء في يسوع المسيح.

" إلى أقصى حدود الحب " (يو ١٣/١)

قال يسوع عند موته: " تمَّ كلُّ شيء " (يو ١٩/٣٠). في موت يسوع، وصل تاريخ البشريَّة كُله إلى تمامه، إلى قمته. رجلٌ من ذريتنا وصل إلى آخر الحب، وجعل من موته فعلَ حبِّ كامل، مستسلماً بلا تحفُّظ بين يديّ الأب (لو ٢٣/٤٥) وبين أيدي إخوته الخاطئين (لو ٢٣/٣٤-٣٤).

إنَّ فعل الموت هو ثمن سدده يسوع رمزياً قبل الاستحقاق، أي بطريقة مميَّزة رمزيَّة: في العشاء السري. ففي عشية موته، ولتمجيد الأب وفرح إخوته، جعل يسوع من نفسه خبزَ الناس: أخذ الخبز الذي هو جسده، وسدّد موته قبل الاستحقاق. فقال لتلاميذه: جسدي هو أنتم. إنَّ ألامه حققت ما قاله. ذلك أنَّ الناس لا يستطيعون أن يميتوا الذي هو الحياة بالذات، لو لم يرد نفسه أن يموت من أجلهم حباً بهم.

إلاَّ أنَّ يسوع قال لتلاميذه في العشاء السري: "اصنعوا هذا لذكري" (لو ٢٢/١٩). ليس ذلك مجرد رتبة يجب تكرارها، بل إنَّ ما قاله في ذلك المساء يعني أنَّ الكنيسة مدعوة إلى الدخول في الفعل الذي يخلصها ويفدسها: نحن مخلصون، ونحن نجعل من حياتنا فعلَ حبِّ كاملاً بقدر ما نأخذ أنفسنا حقاً ونكسرهما في الموت عن ذواتنا، فنصبح خبز الآخرين، لمجد الأب.

سرَّ الحبِّ الكنسيَّان

إنَّ عمل الروح القدس لتحقيق كمال الزَّوجين المسيحيين يبلغ ذروته في سرِّ القربان: الإفخارستيَّا. ولأنَّ الزَّوجين المسيحيين هما زوجان جائعان إلى سرِّ القربان، فإنَّهما يستسلمان للروح القدس في هذا السرِّ لكي يصبحا خليَّة حية من خلايا جسد المسيح. وبما أنَّ الإفخارستيَّا هي سرِّ حبِّ المسيح الذي "بلغ به الحبُّ إلى أقصى حدوده" (يو ١٣/١)، فإنَّ المسيح يأتي كلَّ مرَّة ويحيي بالروح القدس سرِّ الحبِّ البشري، أي سرِّ الزواج، لكي يعيش الزَّوجان الحبُّ إلى أقصى حدوده. وكلَّما اشترك الزَّوجان في سرِّ الإفخارستيَّا، فإنَّ كلَّ ما قلناه عن عمل الروح القدس في الزَّوجين المسيحيين يتحقَّق مرَّة جديدة ويحتفل به في سرِّ الإفخارستيَّا.

إنَّ الزَّوجين اللذين يتوجَّهان إلى سرِّ القربان، يُلبَّيان دعوة إلهية. و يشهدان بذلك على أنَّهما خليَّة في جسد المسيح. وباشتراكهما في هذا السرِّ، الذي هو "فعل الكنيسة الجوهري"، يؤكِّدان وحدتهما مع الكنيسة وانفتاحهما في الوقت نفسه على عمل الروح القدس. "ولنكنَّ نعمةً ربِّنا يسوع المسيح ومحبَّة الله وشركه الرُّوح القدس معكم جميعاً." (٢ قور ١٣/١٣)

إنَّ تلبية تلك الدعوة الإلهية تفترض شرطاً أساسياً. فالزَّوجان مدعوَّان إلى تطهير حبَّهما. سبق لنا أن تكلمنا عن أهمية الغفران عند الزَّوجين. وهو ضرورةٌ ماسَّة لهما عند عتبة الاجتماع القرباني: "إذا كنتَ تقرب قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أنَّ لأخيك عليك شيئاً، فدع قربانك هناك عند المذبح، واذهب أولاً فصالح أخاك" (متى ٥/٢٣-٢٤). فكيف تشارك في وليمة الحبِّ قبل أن تعيد الحبِّ؟ بعد تنفيذ هذا الشرط، يستطيع الروح القدس أن يعمل دون عقبة ليظهر الزَّوجين المختلفين وليفتحهما على غفران الله ويعطيتهما قلباً جديداً جاهزاً لحبِّ مجدِّد.

هذا القلب الجديد هو قلب يُصغي ويقبل بأن تُزرع فيه كلمة الله التي هي يسوع المسيح نفسه. إنَّ إصغاء الزَّوجين إلى كلمة الله يكون كاملاً في ذلك الإصغاء الجماعي الذي يحصل في الاجتماع القرباني... حيث يستطيع الزَّوجان المسيحيَّان أن يتأملاً مشروع حبِّ الله ويستمدَّا منه قوَّة الروح القدس، فيدخلان في حوار مع إله العهد الذي يأتي وينير عهدهما الزوجي من خلال حياة تُعاش في

الحبّ وتشهد للحبّ. هذا وإنّ الإصغاء إلى كلمة الله في الكنيسة يذكرّ الزوجين المسيحيين بمسؤوليتهما في إعلان كلمة الله، ولا سيّما بشرى الحبّ البشريّ، بمساعدة الروح القدس الذي يتكلّم فيهما.

دروب تفكير

- ما هو الموت في نظرنا؟ هل هو مسألة تهمة؟ هل سبق أن تكلمنا عنه؟
- ماذا يعني لنا " أن يسوع قام من بين الأموات"؟ هل هذه المسألة هي مركز إيماننا؟ أم هي مسألة تطرح سؤالاً؟
- هل عشنا في حياتنا الشخصية أحداثاً جعلتنا نفكرّ بعمق في سرّ الموت والقيامة؟ وهل أثرت فينا؟
- هل عشنا في حياتنا الزوجية مثل تلك الأحداث؟ وهل أثرت فينا؟ وفي أيّ شيء؟
- هل اهتمامنا حتى الآن، كأفراد وكزوجين، بأن يساعد الواحد الآخر على أن نموت لأنفسنا لكي نقوم مع المسيح؟

إذا تذكّرنا على هذا النحو بعض الأوقات المهمة من ماضينا، إمّا في سرّ قلبنا، أو في حميمية الحوار الزوجي، أو في الفرقة، فسنهتّم بشكر الربّ على تلك "القيامات" وتلك الانتصارات على الحياة "مع المسيح".

نقاط الجهد الملموسة

لكي تساعدنا فرقة السيّدة على التعمّق في سرّ الموت والقيامة وعلى عيشه، فإنّها تدعونا إلى " أن نتقرب غالباً من الأسرار، لا سيّما من سرّ القربان أو الإفخارستيا"، وهي تعرض علينا طرقاً ملموسة مختلفة. فندعوكم إلى التوقّف اليوم، بوجه خاص، عند واحدٍ من هذه الطرق، أي الرياضة الروحية، وفي الوقت نفسه عند سرّ الإفخارستيا.

- سرّ القربان أو الإفخارستيا

- أيّ منزلة يحتلّها اليوم سرّ القربان في حياة كلّ منّا شخصياً؟ وفي حياة الزوجين؟ هل المشاركة في هذا السرّ هي مجرد "واجب" أم هي وقتٌ مهمّ؟ ماذا يمثلّ لنا؟ كيف كانت مسيرتنا في هذا الشأن؟
- هل نستعدّ لقداديسنا يوم الأحد؟ فردياً؟ في العائلة؟ في الفرقة؟ كيف نشترك فيها؟
- هل هناك رابط بين سرّ الإفخارستيا وسائر الأسرار؟ بوجه خاص بينه وبين سرّ المصالحة؟ بينه وبين سرّ الزواج؟

- أيّ مساعدة نتمنّى أن نحصل عليها من قريننا لكي نعيش حياتنا الأسراريّة على وجه أفضل؟ ومن الفرقة؟

- الرياضة الروحيّة السنويّة

تدعونا فرق السيّدة إلى أن نقف أمام الربّ، أقلّه مرّةً في السنة، لنتبيّن وضعنا، وذلك في رياضة روحيّة تستغرق ٤٨ ساعة على الأقل، يشارك فيها جميع أزواج الفرقة.

- هل قمنا برياضة روحيّة سنويّة في السنين الأخيرة؟ ماذا جننا نطلب فيها؟ وماذا وجدنا؟
- هل لدينا صعوبة للقيام بالرياضة؟ ولماذا؟
- هل ساعدتنا الفرقة في هذا المجال؟ هل تستطيع الفرقة أن تعمل أكثر من ذلك؟
- هل ساعدتنا رياضاتنا الأخيرة على أن نموت عن أنفسنا لنقوم مع المسيح؟ فرديّاً؟ وكزوجين؟

الفصل الثامن

أبناء الكنيسة

لا شك أنّ بعضكم يتذكّر هذه الجملة التي استشهد بها الأب هنري كافاريل في إحدى مواضعه: "إن أردت أن تعرف عمق حبك للمسيح، فأسال نفسك عن حبك للكنيسة". هذه الجملة تذكّرنا بالجملة التي قالها القديس قبريانوس: "إنّ الذي لا يريد أن تكون الكنيسة أمّه لا يستطيع أن يطالب بأن يكون الله أباه".

ومع ذلك، ما أكثر عدد المسيحيين، حتى الملتزمين منهم، الذين يقولون في أيّامنا: "المسيح والإنجيل؟ نعم، أمّا الكنيسة فلا". كما لو كنّا نستطيع أن نفرّق بين المسيح والكنيسة؟ ذلك بأننا نجد بين معاصرنا بلبلة كبيرة حول مفهوم الكنيسة. ومع أنّه ورد في الكتاب المقدّس "أنها سرّ ظلّ مكتومًا مدى الدهور وأعلن الآن بكتب الأنبياء"، فإنّ الكثيرين لا يرونها إلا في وجهها البشري، أي كمجتمع عالمي مؤلف من أناس توخّدهم المعتقدات والعبادة، فلا يشعرون بالتالي أنهم أعضاء في الكنيسة ملتزمون فيها ومسؤولون معها، ومع أنّهم يقولون بأنهم مسيحيون، فهم يرفضونها من الخارج.

في مثل هذه الظروف، يصعب علينا أن نحدّد موقعنا. لا شك أنّنا نقول في قانون الإيمان: "أومن بكنيسة واحدة جامعة مقدّسة رسولية"، ولكن ماذا نضع تحت هذه الكلمات؟ لقد درّسنا نصوص المجمع الأخير "نور الأمم" و"فرح ورجاء" وحفظنا الأفكار المهمّة: سرّ الكنيسة، الكنيسة شعب الله، الكنيسة جسد المسيح... ولكن هل انتعش مفهومنا للكنيسة وعلاقتنا بها؟ نتق بالكنيسة في دورها "معلّمة الحق"، ولكن ألا تُزعزُعنا تلك التيارات الفكرية التي تُطرح من جديد للبحث بسبب أحد تعاليم الكنيسة التقليديّة أو تُطعن في حقّها في أن تتدخّل في أحد المجالات، كالأخلاق الزوجية خاصة؟ نشترك بوجه خاص في حياة الكنيسة في إطار رعيّتنا، ونشعر بأننا مسؤولون عن حياتها، ولكن، ألسنا نعمد غالبًا إلى انتقادها، كما لو لم تكن نحن؟

كيف ننظر اليوم إلى الكنيسة؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا، لكي نقيس عمق حبنا للمسيح.

وثائق

نصحكم أن تقرأوا قبل أي نصّ آخر، الوثيقتين الكبيرتين الصادرتين عن المجمع الفاتيكاني الثاني: "نور الأمم" و"فرح ورجاء".

أحبّ الكنيسة

أصدقائي الأعزاء،

أنتم فعلّ إيمانٍ في الكنيسة. فنحن لا نتأمّل الكنيسة، بل نخلقها: "حين يجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، أكون بينهم"، يقول الرب. إنّ الكنيسة هي جماعة الذين لبّوا الدعوة. لقد أتت ساعة تأسيس الكنيسة.

نحن مؤمنون ومؤمنات، كما في يوم العنصرة، مجتمعون لكي نقول، كل واحد في لغته، قصة القائم من الموت السريّة والإلهيّة. وإذا صحّ أنّنا نشكّل كنيسة، فليس لكي نسوس العالم، ولا لكي نهرب من العالم. نحن هنا أولاً لكي نسأل بعضنا بعضاً: "وأنت، ماذا تقول عن يسوع؟" هذا سمع بطرس في قيصرية فيلبس سؤال يسوع: "وأنتم من تقولون إنّي أنا هو؟" فأجاب، كمّن يُسمّع درساً حفظه عن ظهر قلب، معلناً إيمانه: "أنت المسيح، ابن الإله الحيّ ... عندك أقوال الحياة الأبديّة". وترك كل شيء ليتبعه. وهكذا فعل الإنجيليّ يوحنا الذي خاطر بكل شيء من أجل ذلك الذي هو "الملك". إذ كتب في نهاية حياته بأحرف من نار: "الله محبّة". فكانت هذه العبارة بمثابة اختصارٍ أو شرح لما شاهده التلميذ الحبيب وعاشه في ذلك المساء أمام الصليب أو بمثابة جواب لما قاله الربّ، في ساعة شبابه: "تعال وانظر!"

إنّي أحبّ الكنيسة لأنّها تخاطر بحياتها عن حبّ وتحمل صليبيها بأمانة. إنّ المجمع الفاتيكاني الثاني دمرّ الأقفال وأسقط الأسوار وكسرّ الحصون. الكنيسة تقبل بأن تعيش صومها الكبير. إنها تتطهّر في نفخة الروح القدس.

والكنيسة هي نحن، وهي خادمة. ونحن خدام وخدامات إنجيل يسوع المسيح ووكلاء أسرار الله. نحن لا نستطيع أن لا نتكلّم، وعلينا أن نجعل كلماتنا ولساننا وثقافتنا في تصرف تلك الكلمة الإلهيّة التي تأتي من مكان آخر. إنّ الروح القدس يأتي إلى العالم عن طريق الكنيسة. وهذا العالم ينتظر الخلاص. وبموت المسيح وقيامته انتصر الحبّ. وللإعلان عن هذا الانتصار والتبشير به، ليس عند الله صوتٌ إلاّ أصواتنا. فالله يتكلّم باللسنة الناس.

لذلك، لم يصنع الله كنيسة دُعاة، بل شعبٌ شهود. وقبل أن يؤدّي الشاهد شهادته، يكون مشغول البال بسبب ما رآه وسمعه ولمسه بيديه: "ذاك الذي كان منذ البدء، ذاك الذي سمعناه، ذاك الذي رأيناه بعينينا، ذاك الذي تأملناه ولمسناه يدانا من كلمة الحياة [...] به نبشركم أنتم أيضاً لتكون لكم مشاركة معاً، ومشاركتنا هي مشاركة لأب ولأبنة يسوع المسيح. وإنّا نكتب إليكم بذلك ليكون فرحنا تاماً." (١ يو ١/١-٤)

الكنيسة مدعوة إلى محكمة العالم، وهي لا تستطيع أن تتهرّب. بل عليها أن تقول الحقيقة. عليها أن تعلن اختيارها. عليها أن تعيش مرّة ثانية ذلك الحدث الذي هو، بالنسبة إليها، ميلادها ورسالتها. إنّ عملنا ليس عملاً سياسياً. فلننا عمال حضارات. عملنا ليس سياسياً. فلننا رؤساء في هذا العالم. نحن شهود للذي لا يرى. ومساهمتنا الحقيقيّة للبناء ولرجاء العالم هي أن نؤمن وأن نعيش الله في الوقت الحاضر. إن فرادة المسيحيّة ليست الإيمان بما بعد الموت، بالحياة الأبديّة. وليست المعركة في سبيل العدل، بل هي إظهار وجه المصلوب في تلك المعركة.

ماذا يجب على الكنيسة أن تفعله هو أن تحيا، أن تعيش، في كل لحظة من وجودها الطويل، مثل السامريّ الصالح. وقبل الكلام، عليها الإصغاء، لتسمع نوح الله الطويل المنبعث من صدور الرجال والنساء المصدومين والمحطّمين.

أناس كثيرون ينتقدون الكنيسة. هذا غير عادل. يقول بعضهم أنّها غير أمينّة لتقاليد الماضي، ويقول بعضهم الآخر أنّها غير ذكيّة في تعاطيها مع الأزمنة الحالية. يحكمون على تطوّر ها، يعاقبون ها على جمودها. والمسؤول دائماً هو الآخر والجار. والإغراء كبير في أن يجعلوا الكنيسة نقيض المسيح، وأن يختاروا المسيح ويرفضوا الكنيسة. فليفهموا أن المسيح من دون الكنيسة هو إله ميت، لا في حدّ ذاته، بل للعالم. إنّ لم يكن هناك كنيسة للترنيم ولإعلان الإنجيل، يبقى إله الإنجيل مغلقاً عليه في الكتاب ومختوماً. إنّ الإيمان بالمسيح لا يُفصل عن الكنيسة التي هي سرّ الخلاص. ولذلك، يجب الاستشهاد هنا بقول المسيح لتلاميذه: "من رفضكم رفضني، ومن سمع منكم سمع مني".

سرّ الكنيسة

الكنيسة شعب الله

ليست الكنيسة منظمةً تحكمها قوانين (شرع كنسي) ويستخدمها بوجه خاص كوادِر مهنيّة تخضع لها أعداد من الناس ...

إنّ حقيقة الكنيسة هي، قبل كل شيء، أولئك الرجال والنساء والأولاد المسيحيّون الذين نعرفهم شخصياً والذين أخذنا من عندهم ولا نزال معرفة المسيح ومحبتّه. إن فكّرنا في اختبارنا نرّ إلى أيّ حدّ نحن متضامنون في إيماننا. فنحن لا نحصل، كلّ واحد لوحده، على وحي الله والمسيح مباشرةً في روحنا وقلوبنا. إذ لا يستطيع أحد أن يكون مسيحياً وحده. إنّ الله يظهر لنا عبرّ الناس. ونحن نُشكّل جماعةً، جماعةً الذين يسمعون الكلمة ويعملون بها.

إنّ الكنيسة هي الجماعة المدعوّة من قبل الله. لقد رأينا أنّ كلمة الله هي كلمة شخصيّة وديناميّة وفاعلة تطبع سمتها في الإنسان وتغيّر حياته. فالكنيسة هي جماعة الذين وُسموا بكلمة الله وسمعوا نداءه ولاقوه في الإيمان. لكنّ الله لا يظهر لكلّ فردٍ وحده. بل يختار شخصاً ويرسل إليه كلمته (كما فعل مع موسى بوجه خاص)، وفي أقوال ذلك الرجل وحياته المحوّلّة يدرك الآخرون أيضاً كلمة الله. هذه الكلمة لا تُعطى في نصوص جامدة كما تُعطى المعارف العلميّة في كتاب مدرسي. إنّها تُعطى عبرّ علاقاتٍ شخصيّة، عبرّ أناس ختمهم الله في وجودهم الشخصي. وهكذا يؤسّس شعبٌ وجماعةٌ سامعي الكلمة، حيث كل واحد هو، بالنسبة إلى أخيه، شاهدٌ لله، وحيث تصبح الجماعة كلّها (كما كان إسرائيل) شاهدةً لله أمام العالم.

وتحوّل حياة هؤلاء الناس كلّها، لا علاقاتهم بالله فقط، بل مع الآخرين أيضاً. لكنّ شعب الله الذي يسمع الكلمة ويحملها، عليه أن ينقلها ويعبرّ عنها بطريقة أشدّ وضوحاً، في أقوالٍ ورُتب. ففي الليتurgiّة، يجتمع الشعب لسمع الكلمة التي أخذها من أجداده، وليرثم لله فرحه في التسبيح والشكر، وليسألها أن يواصل إحساناته، ابتداءً بغفران الخطايا.

يصف لنا العهد القديم بعض الاجتماعات الكبرى، حيث كان يتمّ تجديد العهد. فالليتurgiّة هي بمثابة المركز الذي كانت تتقارب فيه وتلتقي حياة إسرائيل.

الكنيسة هي شعب الله الجديد الذي عرف المسيح، كلمة الأب الشخصيّة وأمن به. والكنيسة أيضاً تجتمع لتسمع تلك الكلمة في ليترجيّتها، وبوجه خاص في سرّ القربان أو سرّ الإفخارستيّا، ويتعيّن على كل واحد، باشتراكه النشيط في هذه الاجتماعات، أن يساعد إخوته في لقاء المسيح. نحن نوّمن أنّ كلمة الله التي هي المسيح بالذات تبلغ إلينا في جماعة حيّة مركزها هو الليتurgiّة.

تُستعمل عبارة "شعب الله" أيضاً، كما سنرى، لكي تجذب الانتباه إلى أنّ الكنيسة ليست السلطة فقط، بل، وقبل كل شيء، جماعة الإخوة.

لكنّ هذه العبارة تذكّرنا بوجه خاص بأنّ وحدة المؤمنين الذين يشكّلون شعباً ليسوا أفراداً منعزلين، بل جماعة يبحث الأعضاء فيها عن الله عبرّ لقاءات أخويّة. إنّ كياننا المسيحي لا يستغني عن أن يعيش مع مسيحيين آخرين يبحثون عن وجه الرّب.

كما تذكّرنا، من جهة أخرى، بعظمة هذه الجماعة وكرامتها: إنّها شعب الله، وهذا هو الأهم. الذي دُعي من قبل الله، والذي يسير لفقائه في الشكر والرجاء.

الكنيسة جسد المسيح

في العهد القديم، لم تكن كلمة الله مرتبطة بأي شخص. فالله تكلم بعدة طرق وعدة أشخاص، متدجلاً دائماً، لا سيما عن طريق الأنبياء ... لكن الله كان دائماً أبعد من شهادة موسى والأنبياء. كان إسرائيل يجتمع، لا حول موسى، بل حول الشريعة ووحى الله.

أما يسوع المسيح، فليس شاهداً لله بين شهود آخرين. إذ إن كلمة الله مرتبطة بشخصه، بل إنه شخصياً كلمة الله. وهو لا يملك فقط "مجداً عابراً"، كموسى (٢ قور ٣/١٢-١٣). لذلك، فإن شعب الله لا يجتمع حول كلمة الله المكتوبة أو المنقولة، بل حول يسوع نفسه، كلمة الله. لا يمكن إداً فصل يسوع عن الرسالة التي تركها. وكنيسة الله هي كنيسة المسيح. إن الكاهن، وقبلة الأسقف، يمثل شخص المسيح الذي كانت الجماعة تجتمع حوله.

الكنيسة هي جسد المسيح. ويجسده أصبح المسيح منظوراً وفي متناولنا. وأصبح جسده، أي هو نفسه، يعبر في عالمنا. والقول بأن يسوع قام من الموت جسدياً يعني أنه، حتى في جسده الممجد، يبقى حاضراً في عالمنا، في متناولنا. فهو، حين "صعد إلى أبيه"، لم "يقطع الجسور معنا".

كيف يبقى في متناولنا؟ عبر جماعة تلاميذه الذين أكدوا حضوره الجسدي وعاشوا معه منذ البدء ورأوه قائماً من الموت. إن الجماعة المسيحية تؤمن استمرار يسوع الملموس في التاريخ. إنها جسد المسيح الذي به يواصل الرب إظهار حضوره. وفي الليتيرية، ولا سيما في الأسرار- حيث تعبر الكنيسة عن سرها- نرى المسيح حاضراً دائماً.

المسيح حاضر بطريقة ملموسة، يعني ذلك أننا لا ننتزع عن الكنيسة المنظورة لنعرف يسوع ونلقاه. فهذه الكنيسة هي جسد المسيح، ونحن لا نستطيع أن نعرف أحداً من دون جسده، من دون تعبير منظور وملموس يمكن من الدخول في علاقة معه. إن لم نستق معرفتنا من تقليد الكنيسة، لا نخلق صورة شخصية للمسيح، ولا نعرف من الذي عاش فعلاً قبل ألفي سنة وكان كلمة الله حتى في جسده. هنا تكمن أهمية جميع آثار الماضي التي نسميها التقليد المقدس: فهذه النصوص والرُتب والتقاليد هي كذخائر يمكننا وعلينا أن نستقي منها إذا أردنا أن نعرف المسيح معرفة حقيقية.

يجدر بنا أن نضيف أن الجسد، الذي هو كشفٌ وتعبيرٌ حيٌّ عن الشخص، يمكنه أيضاً أن يخفيه ويجعله غير شفاف. والكنيسة، التي هي جسد المسيح، قد تكون حجاباً يمنع تجلي مجد المسيح.

فلنتوقف هنا عند ما يقوله لنا المجمع الفاتيكاني الثاني عن حضور المسيح في الأسرار الكنسية: "في الفعل الأسراري، المسيح نفسه هو الذي يفعل كالإنسان الذي يفعل، كالإنسان الذي هو حاضر ويفعل في جسده. إن العلامات الأسرارية ليست علامات فارغة، أي علامات نذكرنا بيسوع المسيح. بل إنها، كما يقولون، "علامات فعالة"، علماً بأن الفعالية هي هنا فعالية حضور وكلمة شخصية.

إن عبارة "جسد المسيح" تجذب أيضاً انتباهنا إلى الوحدة والتنوع في الكنيسة، كما ورد مراراً في رسائل القديس بولس (على سبيل المثال: ١ قور ١٢/١٢-٣٠). لكن المعنى الأساسي لعبارة "الكنيسة هي جسد المسيح" هو أن المسيح يظهر في الكنيسة ويمتد فيها.

الكنيسة هيكل الروح القدس

كما أنّ الروح البشريّ يحيي الجسد ويجعله حيّاً، كذلك من دون الروح القدس، لا تكون الكنيسة إلاّ ملتقى ذكريات، ولا يكون الكتاب المقدّس إلاّ "حرفاً ميتاً". لننذكر الفرق بين صورة شمسيّة ووجهٍ حيّ ...

أرسل يسوع روحه إلى تلاميذه فحلّ عليهم، لأنهم ليسوا جسداً ميتاً، بل هم جسدٌ حيّ، فيه تحفظ كلمة الله دائماً شبابها، وفيه يبقى المسيح حاضرًا حضوراً شخصياً حقيقياً.

دروب تفكير

- في نظرنا، ما هي الكنيسة؟ ماذا تمثّل لنا؟ هل نشعر بأننا منها وهل نريد أن نكون مسؤولين عنها حقاً؟ كيف كانت مسيرتنا في هذا المجال؟ أية صعوبات تعرّضنا؟
- أي موافقة نعطي لتعليم الكنيسة؟ لأقوال البابا؟ لتوجيهات أساقفتنا؟
- كيف نشترك في حياة الكنيسة؟ في رسالتها الإنجيليّة؟ ماذا كانت في الماضي وما هي اليوم التزاماتنا داخل الكنيسة؟ أي معنى نضفي عليها؟
- هل نشكّل نحن الرّوجين حقاً خليّةً كنسيّةً؟ كيف؟ ألسنا نميل بسهولة إلى انتقاد الكنيسة، أمام أولادنا بوجه خاص؟
- إنّ الدستور العقائدي في الكنيسة يكرّس فصلاً طويلاً لمريم العذراء "أمّ الله في سرّ المسيح والكنيسة": أيّ منزلة تحتل مريم العذراء في حياتنا الإيمانيّة؟

نقاط الجهد الملموسة

بعد أن توقّفنا عند كل من الطرق المختلفة التي تعرضها علينا فرقة السيّدة لتساعدنا على السير في خطى المسيح، نعرض عليكم أن تفكّروا في حياة فرقتكم.

إن فرقة السيّدة، على ما ورد في وثيقة "ما هي فرقة السيّدة"، تريد، في وقت واحد، أن تصلنا بالآب، بالاشتراك الوثيق مع الكنيسة، وبالانفتاح التام على العالم.

فلنطرح على أنفسنا الأسئلة التالية:

- هل فرقتنا موصولةً بالآب؟ أيّ منزلة تحتلّها الصلاة الجماعيّة؟ هل يحمل بعضنا بعضاً في الصلاة؟ هل اجتماع الفرقة هو وقتٌ عميق نصغي فيه جميعاً إلى الأب لكي يرسل إلينا روحه، كما وعدنا به؟
- هل فرقتنا هي اتحاد وثيق بالكنيسة؟ إنّ فرقة السيّدة هي، ككل جماعة مسيحيّة، خليّة كنسيّة، لا تستطيع أن تحيا مستقلةً من دون أن تنفصل عن ينبوعها. فكيف تحيا فرقتنا هذا الرباط الحيويّ مع الكنيسة؟ وكيف تشارك في حياة الكنيسة؟
- هل فرقتنا منفتحةٌ تماماً على العالم؟ ألسنا منشغلين أكثر من اللازم بمشاكلنا الشخصيّة؟ هل نهتمّ بجميع إخوتنا؟ هل نهتمّ، بالتعاون الحقيقيّ، بأن نكون لديهم شهود الحبّ؟

المحتويات

صفحة

٣	بدلاً عن المقدمة
٥	إيماننا : الفصل الأول
١٣	حُبنا الزوجي : الفصل الثاني
٢١	حياتنا العائلية : الفصل الثالث
٢٧	شهادتنا : الفصل الرابع
٣٥	الإصغاء إلى المسيح : الفصل الخامس
٤١	أحرار في المسيح : الفصل السادس
٤٩	أموات وقائمون من الموت مع المسيح : الفصل السابع
٥٧	أبناء الكنيسة : الفصل الثامن
٦٤	المحتويات